جيش مصر

فى أيام صلاح الدين

تأليف
دكتور
نظير حسان سعداوى
كلية المعلمين بالقاهرة

١٩٥٦

الثمن ١٥

ملتزمة النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى باشا - القاهرة

محتويات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

حاولت دول الجامعة العربية فى صيف ١٩٤٨ جاهدة أن تحول دون قيام دولة إسرائيل بفلسطين ؛ غير أن محاولتها باءت بالفشل الذريع سياسياً وحربياً ، بسبب ما كان من عدم تماسك فى جسم الدولة العربية ، فضلا عن تأييد معظم الدول لفكرة قيام إسرائيل واستعدادها بتموينها بالمال والسلاح والمتطوعين . ثم قامت الثورة المصرية المباركة فى فجر يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢م ، (١ ذى القعدة ١٣٧١هـ) وبرهنت على سعة الإمكانيات المصرية فى مختلف النواحى الروحية والاقتصادية والمالية ، كما برهنت الحوادث نفسها للثورة المصرية ، أن الأوضاع السياسية والحربية والاجتماعية فى دول الشرق الأوسط كله ، لاتستطيع أن تستقر إلا بإجلاء ذلك الوليد الغريب عن أرض فلسطين. لذلك سعت مصر إلى نشر الوعى القومى العربى بين المصريين ؛ فمن جيوش تدرب ، ومصانع حربية تقام هنا وهناك ، ومدارس عسكرية تنشأ ، وفتيان وفتيات يجرى تدريبهم على فنون الدفاع العسكرى ، ومتطوعين ومتطوعات ترابط فئاتهم

عندالأطراف المصرية، ومحالفات بين مصر وشقيقاتها العربية النابضة بالروح الجديدة ، ودعايات ومؤتمرات لرفع الروح المعنوية لا فى الشرق الأوسط فحسب ، بل فى الشرق الأقصى وآسيا وأفريقيا .

وما أشبه اليوم بالأمس حين نزل الصليبيون بأرض فلسطين والشام ١٠٩٩ م وأقاموا ملكا لهم ، والخلافة العباسية السنية ببغداد نائمة غافلة ، والخلافة الفاطمية الشيعية بالقاهرة غارقة فى مباهج الانحلال السياسى والدينى . ثم ولى أمر مصر صلاح الدين الأيوبى سنة ١١٧١ م فكانت ولايته نقطة تحول فى تاريخها بوجه خاص وفى تاريخ الإسلام بوجه عام ، إذ آمن صلاح الدين بالجبهة الإسلامية ، كما آمن بالقوة ، والقوة لا تكون إلا فى أرض مصر وتحت سمائها .

وتكشف صفحات التاريخ عن القوة التى صنعها صلاح الدين فى مصر ، بل العالم الإسلامى كله ، وعن الطريق الذى سلكه فى خلقها ، والقصد الذى صوبها إليه ، وهو تحرير الديار المصرية من الفوضى الداخلية التى خلفها الحكم الفاطمى ، ثم تكتيل وتجميع الشعوب الإسلامية تحت زعامة مصر ، أو بمعنى آخر تحت قيادة محور ارتكاز ناشط ، يجمع بين القاهرة ودمشق ومكة على الأقل . والتاريخ خير ما تهتدى به الشعوب الناهضة ، لتشق طريقها فى الحياة، إذ « فى باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات

ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق » على قول ابن خلدون[1] .

وتكشف صفحات التاريخ كذلك، عن الفئات المتعددة التى تكون منها الجيش الناهض للصليبيين وعن نظمها فى القتال ، فضلا عن الأساليب المطلوبة لقيادة تلك الأجناس المختلفة . وتبرز أخيراً صورة صلاح الدين وهى أشبه ما تكون . بصورة الخلفاء الأولين ، مجاهداً فى سبيل الحق والكرامة ، رحيما بالأسرى ، شفيقاً بالجرحى والمرضى ، حافظاً للعهد ، مقداماً ، سياسياً ، متديناً ، ناصحاً أميناً ، يخوض المعارك عن رأى وحرب ومعرف بالمكايدة، وغير ذلك من الصفات التى تفيض بها مراجع السيرة الصلاحية .

وبعد ، فالمؤلف يشكر أستاذه دكتور محمد مصطفى زيادة رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة ، على ما أبداه من تشجيع وتوجيه وملاحظات قيمة .

القاهرة فى { ٢٥ شوال ١٣٧٥ — ٤ يونية ١٩٥٦

نظير حسان سعداوى

(١) المقدمة ص ٣ طبعة بولاق .

الفصل الأول

تشكيل الجيش و تنظيمه

ارتكاز سياسة صلاح الدين العسكرية على أنظمة الدولتين الفاطمية والنورية — الإقطاع العسكرى السلجوقى — الإقطاع النورى — الفاطميون وأصناف المرتزقة — خطوات صلاح الدين فى تكوين جيشه — العسكر — الجند — الأحداث — البدو — المتطوعون — صلاح الدين ورجال الدين — المرأة فى الميدان — تقسيم الجيش إلى طوائف : النورية — الأسدية — الصلاحية — استمرار القواعد الأيوبية فى العهد المملوكى .

قامت الدولة الأيوبية مقام الدولة الفاطمية فى مصر والدولة الزنكية النورية فى الشام وأطراف العراق . واستمدت نظمها العسكرية وسياستها الحربية عمداً أو فى غير عمد من هذين المنبعين الرئيسيين . غير أنه يبدو أن المنبع الزنكى النورى كان الأقوى والأكثر ظهوراً فى التاريخ الأيوبى ، إذ نشأ الأيوبيون الأوليون فى كنف عماد الدين زنكى وأهله ، وهم أصحاب الفضل فى غرس بذرة الدولة الأيوبية . ونشأ صلاح الدين وإخوته وبنو عمومته فى كنف نور الدين بن زنكى . ولما شب صلاح الدين

عن الطوق جاء إلى مصر فى جيش من جيوش نورالدين ، وقام
على منصب الوزارة فى الدولة الفاطمية مدة غير قصيرة مع بقائه
على التبعية لمخدومه الأول .

ولما كانت الدولة العمادية الزنكية النورية فى سياستها ونظمها
فرعاً جانبياً من الدولة السلجوقية العظمى ، فالبحث فى جيش مصر
على عهد صلاح الدين يتطلب الرجوع من وقت لآخر إلى نظم
السلاجقة والزنكيين والفاطميين ، بقدر ما يساعد على إظهار عامل
الاتصال بين الدولة الأيوبية والدول التى سبقتها ، تاريخياً فى مصر
وسياسياً وغير سياسى فى بلاد الشام وأطراف العراق . فمن
المعروف أولا أن الدولة السلجوقية اصطبغت بصبغة عسكرية ، وأن
نظمها قامت على قاعدة الاقطاع الحربى ، وذلك من بداية القرن
الحادى عشر ، عندما انساق الأتراك وراء فكرة الغزو والفتح بزعامة
أبناء سلجوق داخل فارس ، ثم وصل السلاجقة فى حركتهم
التوسعية الدافقة غرباً إلى شواطىء البسفور ، وجنوباً إلى الشام ،
ولمع من بينهم السلاطين والقادة العظام أمثال ألب ارسلان
وملكشاه ، وبلغ تعداد الجيش السلجوقى أيام ملكشاه أربعمائة
ألف من الأتراك والتركمان ، فضلا عن الحرس الكبير البالغ عدده
ست وأربعون ألفاً كلهم من أبناء الأتراك كذلك . ونظراً لمغالاة
هؤلاء وأولئك فى الأجور التى تقاضوها نظير خدماتهم ، ونظراً

لصلفهم وقلة ثباتهم واحترامهم لنظام الجيش الثابت ، لجأ سلاجقة
العراق وسوريا إلى استخدام محاربين جدد من القبائل الكردية
القاطنة على ضفاف الفرات وسفوح جبال طورس ، ومن القبائل
العربية المتنقلة على حافة الهلال الخصيب [١] .

وما زالت القاعدة المرعية فى الدولة السلجوقية قائمة على أساس
إعطاء أولئك المحاربين النظاميين مرتباتهم نقداً حتى منتصف
القرن الحادى عشر الميلادى . ثم أدى اتساع رقعة الدولة وصعوبة
الهيمنة عليها ، وإرهاق الإدارة المالية بباهظ المرتبات إلى تفكير
آل ملك الطوسى وزير ملكشاه فى الاستعاضة عن المرتبات
النقدية بالاقطاعات من الأرض لمختلف طبقات الجند ، ظناً منه
أن تسليم الأرض إلى المقطعين يضمن عمارتها لاعتنائهم بأمرها
أكثر مما لو أشرف عليها ديوان واحد . ومن ناحية أخرى أراد
الوزير أن يحدد النشاط الحربى لنفر من أمراء السلاجقة بعد أن
أهلكتهم البغضاء . فأوقف لهم ولايات تحت اسم إقطاع ، ومنحهم
حق تكوين الفرق الحربية وامتلاك البقاع التى يخضعونها
اقطاعات على شريطة أن يكونوا تابعين لسيدهم ، وبذلك تملك
طوطش أخو ملكشاه حلب ودمشق ، كما تملك ابن عمه سليمان

(١) — Gibb : The Damascus Chronicle pp. 29 — 36 —
Reinaud : L'Art Militaire chez Les Arabes au Moyen Age p. 229.

آسيا الصغرى . ولم يكتف الأمراء بترك أراضى معينة للمحاربين الذين يخدمون تحت لوائهم ، بل منحوا القبائل البدوية مساحات واسعة على الحدود ليكونوا لهم بمثابة الارصاد والعيون، يدافعون عنها وقت خلوها من الفرق النظامية الحربية . على أن هذا التحول فى سياسة السلاجقة المالية والحربية لم يؤت ثماره المرجوة ، بل زاد الخلافات والثورات الاقطاعية فى جميع أجزاء المملكة ، وشغل الدولة عن سياستها العليا والأهم ، وهى سياسة الأخذ بيد أمراء سوريا الوطنيين لمواصلة جهودهم ضد غزوات الصليبيين[1] .

ومن المعروف أيضا أن الدولة النورية الزنكية قامت على تلك القاعدة الإقطاعية الحربية كذلك ، إذ جعل نور الدين الإقطاعات الحربية وراثيه حوالى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى رغبة منه فى إغراء وجذب الجند إلى الحرب والنصر ، فإذا توفى أحد الأجناد وخلف ولداً ذكرا أقر الإقطاع عليه ، فإن كان الولد كبيرا استبد بنفسه ، وإن كان صغيرا رتب معه رجلا يثق إليه ، فيتولى أمره إلى أن يكبر ، وكتب بعض المعاصرين حديثا لجندى فى هذا المعنى: «هذه أملا كنا ، يرثها الولد عن الوالد، فنحن نقاتل

(١) المقريزى الخطط ج ١ ص ١٥٣ .
Reinaud : op. cit. : p. 234 — Gibb : op.cit p. 33.

عليها[1] » . وخوفا من تلاعب الأمراء بحقوق الأجناد سجل نور الدين أسماء أجناد كل أمير فى ديوانه، خوفا من بعض الأمراء أن يحمله الشح على أن يكتفى بما هو مقرر عليه من العدد[2] . وضمانا لتنفيذ هذه الأسس أمر نور الدين بتفتيش سجلات الأجناد من وقت لآخر ومطابقتها على نفقاته[3] . على أن قاعدة الوراثة لم تكن عامة فى الدولة النورية بدليل ما قاله أحد جنود السلطان نور الدين فى معركة البابين سنة ١١٦٦ (سنة ٦٦٢ هـ) أثناء إحدى الحملات النورية على مصر «والله لإن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه، ليأخذن مالنا من إقطاع وجامكية ، وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه إلى يومنا هذا » . ثم يلتفت إلى أصحابه ويقول : « تأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم ، وتسلمون مثل مصر إلى الكفار والحق بيده[4] » . فوافقه الجميع على قوله ومن بينهم الضابط صلاح الدين؛ وطبيعى أن ينقل السلطان صلاح الدين نظام الإقطاع الحربى

(١) ابن واصل : مخطوط مفرج الكروب ص ١٦٤ وأبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٨ . Reinaud : op. cit. pp. 335 — 236.
(٢) أبو شامة ج ١ ص ٨ .
(٣) بدر الدين : مخطوط الدر الثمين تحت احداث ٥٦٩ هـ — العينى : مخطوط عقد الجمان ج ٢١ قسم ٣ ص ٥٢٥ .
(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١١ ص ٢١٤ — أبو شامة ج ١ ص١٤٣ . — والجامكية جمعها جامكيات أى الرواتب العامه راجع السلوك ج ١ قسم ١ ص ٥٢ .

الوراثى والشخصى إلى مصر عن مخدومـه نور الدين . وترك ابن مماتى[1] فصـــلا فى المقرر عن عبرة الإقطاعات فى دولة صلاح الدين ،مرتبة قيمتها حسب درجات الأجناد وجنسياتهم :

فالأجناد من الأتراك والأكراد والتركمان، دينارهم الإقطاعى دينار واحد كامل جنديا . . .

الـكتانية والعساقلة من العربان، ومن يجرى مجراهم على عادة الأجناد المصريين ، دينارهم نصف دينار . . .

والغزاة والقواد ومن هم فى معناهم ، دينارهم ربع دينار . . .

العربان إلا من شذ منهم ، دينارهم ثمن دينار . . .

السعر الناقص عن كل دينار جندى . . .

والمأمور بالحوالة به عن كل جندى مصالحه ربع دينار . . .

السعر المأمور به عن كل دينار واحد جندى أردب واحد ، الثلثان قمح والثلث شعير ، والحوالة على بيت المـال فى مستحق الأجناد، كل دينار جندى ربع دينار عينا على سبيل المصالحة[2].

وطبيعى كذلك أن يتخذ صـلاح الدين من النظم الحربية فى الدولة الفاطمية ما يصلح لأغراضه . ومن المعروف أن الدولة الفاطمية اعتمدت على أصناف المرتزقة من الأتراك أولا ، ثم من

(١) ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين ص ٣٦٩ :

(٢) صالح عن نفسه واولاده من بعده . وأخذت فى تحصيل ثمن الـكتان الذى لى، والمصالحة على مابقى منه، كأنه يعنى المهادنه والتنازل عن ماتبقى
Dozy : Supp. Dict. Ar. V. I P. 841.

البربر والأرمن والنوبيين أخيراً ، إلى أن أحس خلفاؤها بانحراف الأتراك عن المذهب الشيعى فأوجسوا خيفة منهم ، ورغبوا عنهم إلى النوبيين والسودانيين . وسار صلاح الدين على سياسة استخدام المرتزقة مع الفوارق التى أملتها ظروفه ، وأولها أن صلاح الدين استقر بمصر على رأس قوة من الجيش النورى ، وأنه أخذ فى تقوية مركزه ونور الدين على قيد الحياة ، فعمل على ترحيل كبـار القادة فى الجيش النورى إلى الشام مثل عين الدولة الياروقى وغيره ممن غضب من تولية صلاح الدين الوزارة الفاطمية. ثم خطا صلاح الدين خطوته الثانية بعد وفاة العاضد ونهاية الدولة الفاطمية سنة ١١٧١ م (٥٦٧ هـ) إذ أخذ فى التخلص من الأمراء المصريين (الفاطميين) والعربان والأرمن والعبيد السود، واستجد عسكراً من الأتراك والأكراد خاصة، أصحاب الإقطاعات[1]، كما أبطل كثيراً من تلك الإقطاعات وخص بها أمراءه وعساكره[2] . أما أولئك الذين أخذوا أجرهم نقدا ولمدة الخدمة وهم المرتزقة، فأشار إليهم أيضاً ابن مماتى[3] بكلمة (الغيبانات)؛ ومعناها أنه إذا قدر لجندى ستمائة دينار حسب اتفاقه أول السنة، ثم غاب فى أثنائها بغير إذن أو دستور

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٥٢ —
Reinaud : op. cit p. 220.

(٢) أبو شامة : جـ ١ ص ١٧٨ — النويرى : مخطوط نهاية الأرب جـ ٢٦ ص ١١١ .

(٣) ابن مماتى : ص ٣٥٥ .

مدة شهرين اقتطع الديوان منها مائة دينار ، وأولئك كانوا فيما
يبدو من جنسيات مختلفة؛ يتقدم الواحد منهم إلى الديوان فيسجل
إسمه ويثبت شخصيته ، ويتناول أجره . وربما عهد الديوان إلى
بعض الأمراء بعملية تجنيدهم . ومثال ذلك ما فعل العادل ابن
رزيك سنة ١١٥٣ م (٥٤٨م) حين أمر الديوان بدفع ستة آلاف
دينار مصرية إلى الأمير أسامة ابن منقذ ليُدَوِّن من قدر عليه من
الجند لصد الصليبيين عن عسقلان. واستطاع أسامة أن يُدَوِّن فى
أسبوع واحد ثمانمائة وستين فارساً لذلك الغرض [١]. ومن هذا
يتضح للباحث طريقة تكوين الجند المرتزقة ، وهى طريقة فاسدة
لما فيها من إمكان تلاعب الأمراء بنفقات المجندين ، وتفضيلهم
استخدام الأحداث المسترخصين على الأبطال البطالين . الأمر
الذى اكتشفه صلاح الدين نفسه عندما كلف بعض الأمراء
بالدخول إلى عكا بجند جدد سنة ١١٩٠ (٥٨٦ ه) بدلا من
المحاصرين ، فاتفقوا مع موظفى الديوان ومعظمهم من نصارى
مصر على الفساد والتلاعب بأمر المجندين [٢]

والمقصود من العسكر هنا الجيش النظامى ، على عكس الجند
وهم الجيش الاحتياطى أو الجيش الإقليمى [٣] . غير أن معظم

(١) أسامة : كتاب الاعتبار ص ٧ و ١٠ .

(٢) ابن الأثير ج ١٢ ص ٣٦ والعماد : كتاب الفتح ص ٢٢٨ .

(٣) Sanaullah : Decline of the Saljuqid Empire
p. 18—Gibb : op. cit. pp. 33 & 36.
=

المصادر تستخدم هذين اللفظين فى غير دقة ولا تحديد [١] . والعلاقة
بين الجند المحلى الاحتياطى والعساكر المركزية الثابتة مرتبطة
بحقوق وواجبات أصحاب الإقطاعات المحلية نحو سيدهم . ومن
الصعب تحديد القوة العسكرية للعسكر وللجند فى مصر
على عهد صلاح الدين . فالجيش الثابت يخدم أفراده بصفة
دائمة ويتقاضون راتباً منظماً ، ويحيطون شخص السلطان
لا يفارقونه أبداً ، ويكلفون أحيانا بالدفاع عن القلاع والحصون .
وجعل صلاح الدين هذا الجيش من الأكراد والترك والتركمان
أو بلغة الإفصاح من أولئك الذين اعتادوا عيشة التقشف والخشونة
وقدرة احتمال الأسفار والقتال . وطريقتهم فى القتال أن يحمل
كل منهم جُزدان وجراوة وسولق وبقجة وتركاش [٢] ، ممتطياً
جواده ويطلق عليهم لفظ الفرسان، ونظراً لأن إعدادهم وتدريبهم

= ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٧٠ — المقريزى : السلوك ج ١
قسم ١ ص ٨٥ — ابن الجوزى : مخطوط مرآة الزمان ج ٨ ص ١٩٤ —
ابن الأثير : تاريخ الأتابكة ص ٣٠٨ .

(١) انظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٩٣ ، ج ١٣
ص ٨٥ — أبو شامة ج ٢ ص ١٢٥ — المقريزى : الخطط ج ١
قسم ١ ص ٤٨ .

(٢) التركاش لفظ فارسى ومعناه الكنانة أو الجعبة التى توضع فيها النشاب .
والبقجه فارسية الأصل أيضا وتجمع على بقج ، وهى الصُّرة من القماش ، توضع
بها الثياب أو النقود أو الأوراق الخاصة . والصولق جراب أو كيس من جلد
يربط على الجانب الأيمن من الحياصه ، توضع به حاجات السفر من الزاد . السلوك
ج ١ قسم ٢ ص ٣٧١ وقسم ٣ ص ٧٨٩ .

على القتال يكلف الأمير أموالا باهظة ظل عــــددهم محدوداً ،
فصلاح الدين رغم حروبه المتصلة ، وفتوحاته الواسعة ، لم يزد عدد
الدين فى خدمته منهم عن أربعة عشر ألفاً ؛ ذكرها وزيره القاضى
الفاضل(١) فى متجددات سـنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ — ١١٩٢)
عندما أمر صلاح الدين عسا كره بالركوب المسير من القاهرة
إلى حصن الكرك الصليبى، فاجتاز العسا كرموكباً موكباً ، وطلباً
بعد طلب، إلى أن انقضى النهار ودخل الليل وعاد، ولم يكمل عرضهم
وكانت عدتهم مائه وسبعة وأربعين طلباً(٢) ؛ وتقدير ذلك يناهز
أربعة عشر ألفا فارساً ، أكثرهم طواشيه وقراغلامية(٣) ، منهم
ثمانية آلاف وستمائة وأربعين فارساً ، وأمراء مائة أحد عشر ،
وطواشيه ستة آلاف وتسعمائة وست وسبعين ، وقرا غلامية ألف
وخمسمائة وثلاثة وخمسين . والمستقر لهم من المال ثلاثة آلاف
ألف وستمائة ألف وسبعون ألف وخمسمائة دينار، خارج عن المحلولين
أى الذين انحلت عنهم اقطاعاتهم أو رواتبهم فأصبحوا بطالين ،
وشاهدت رسل الروم والصليبيين هذا العدد وذلك الجمع، واعتمد

(١) الخطط جـ ١ ص ١٣٩ .
Gibb : op cit. pp. 33 — 36 — Reinaud : op, cit p. 230.

(٢) الطلب جمع أطلاب، والطلب بلغة الغز هو الأمير المقدم الذى له علم معقود وبوق مضروب وعدة ٢٠٠ أو ١٠٠ أو ٧٠ فارسا .راجع خطط المقريزى جـ ١ ص ١٣٩

(٣) القراغلامية هم جماعة الضبطية ، وعملهم مراقبة الطرق فى أثناء سير الجيوش. السلوك جـ ١ قسم ١ ص ٧٥

صلاح الدين على أفراد هذا العسكر دون غيرهم اعتماداً كلياً .
وفى سنة ١١٨١ م. (٥٧٧هـ) استوت عدة صلاح الدين على ثمانية
آلاف وستمائة وأربعين طواشيه وقره غلامية(١) . على حين بلغت
عدتهم فى معركة حطين سنة ١١٧٨ م (٥٨٣ هـ) ، اثنتى عشر
ألف فارس(٢) . وهبط هذا العدد عند العينى(٣) فى السنة التالية
(٥٨٤ هـ) إلى عشرة آلاف تركمانى وكردى ، وحافظت دولة
الأيوبيين على هذا العدد حتى أيام سلاطينها الكامل محمد
وولده الصالح أيوب(٤) . وظل صلاح الدين محافظاً على هذا العدد
من العسكر وهو عدد جيشه يوم أرسوف سبتمبر سنة ١١٩١ م .
ويستفاد من مذكرات عماد الدين(٥) الأصفهانى المؤرخ الحربى
المعاصر لصلاح الدين أن صلاح الدين اعتمد على أفراد هذا العسكر
دون غيرهم اعتماداً كلياً أثناء حصاره الطويل لمدينة عكا (مارس
١١٨٩ — أغسطس ١١٩١) ، إذ منح الدستور للأجناد الغرباء
بالانصراف إذا ما حل الشتاء على أن يعودوا إليه فى الربيع ، على

(١) العينى جـ ٢١ قسم ٣ ص ٦٤٠ .

(٢) ابن الأثير جـ ١١ ص ٣٥٠— Lane-Poole : Saladin p. 204

(٣) العينى جـ ١ قسم ١ ص ٤٧ .

(٤) Lane-Poole : Saladin p. 315
Ayalon : Studies on the Structure of the Mamlouk army p.223

(٥) العماد ص ١٥٩ .

حين بقى هو فى المصاف بمماليكه وخواصه ورجال حلقته وزبدة عسكره .

أما الجند فهم فى الواقع عسكر الأمراء ، ويطلق عليهم مماليك الأمراء أو أجناد الأمراء، وعلى كل أمير، إعداد ما يتطلبه إقطاعه ، فإذا نشبت الحرب ذهب الأمير بجنده إلى الميدان ، وإذا انتهت الحرب عادوا أدراجهم إلى مراعيهم وخيامهم ، ولا يتناولون أجراً منتظما ، بل يكتفون بأى نوع من أنواع التشريف والحظوة لدى السلطان ، كما يأخذون نصيبهم من الأسلاب والغنائم ، ويمتاز البدو منهم بخفة الحركة والضرب بالسهام [1] .

وتشاهد مثل تلك القوات الاحتياطية بمصر فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى، على حين يرجح مشاهدتها بسوريا منذ بداية هذا القرن، مع ملاحظة أن القوات العسكرية لكبار الطوائف الدينية كالدروز والحشاشين تدخل فى عداد الجيش الإقليمى ، على حين تدخل قوات أمراء شيزر العسكرية ، وتتراوح ما بين خمسة آلاف وأربعة آلاف فى عداد العسكر . ومن المشكوك فيه اندماج قبائل العرب الرحل فى الجند ، ولعلهم كونوا جنداً مستقلا استنتاجا من شاهد الواقع [2]، القائل بأن صلاح الدين عرض فى سنة ١١٧١ م

---

(١) Sanaullah : op. cit. p. 4—Reinaud : op. cit p. 231

(٢) Gibb. op. cit pp. 36 — 37

٥٦٧ هـ العربان الجذاميين ، وكانت عدتهم سبعة آلاف فارس فاستقرت على ألف وثلثمائة فارس لا غير ، وأخذ بهذا الحكم عشر الواجب ، وكان أصله ألف ألف دينار ، وكلف الثعالبة مثل ذلك فامتغصوا على قول المقريزى ، ولوحوا بالتحيز إلى الصليبيين [1] وحين خرج صلاح الدين إلى عسقلان سنة ١١٧٧ م حشد معه من العرب ست وعشرون ألف مقاتل، منهم ثمانية آلاف طواشية بما فى ذلك ألف مملوك بقمصانهم الصفراء وثمانية عشر ألف قره غلامية من السودان ، وهم من طبقة المشاة المصرية القديمة ذات الأسلحة الخاصة [2]، واشترك مع صلاح الدين فى ارسوف سنة ١١٩١ من الأتراك أكثر من عشرين ألف رجل [3]، واستعرض صلاح الدين قوة جيشه الاحتياطى عندما زحف نحو حطين فبلغت عدته ما بين خمس وعشرين ألف وسبعين ألف على أكثر تقدير [4] . واستقبل صلاح الدين وهو على حصار عكا أخاه العادل سيف الدين ومعه جماعة من السودانيين جاءوا « بالقبسة القبطية والآلات النوبية » [5] .

---

(١) السلوك ج ١ قسم ١٠ ص ٤٧ .

(٢) Lane-Poole : Saladin p. 154

(٣) Ibid p. 315

(٤) حاشية Stevenson: The Crusades in the east: p. 243

(٥) العماد ص ١٦٣ والقُبسة بالضم الظلمة أو بياض فيه كدرة رَمَاد . قاموس المحيط .

والمعروف أن صلاح الدين حارب السودانيين سنة ١١٦٩م (٥٦٤ هـ) حين تبين غدرهم به ومراسلتهم الصليبيين ، وقضى عليهم نهائياً حتى «أصبح أمرهم كأن لم يكن» على قول ابن واصل[١] . بعد أن بلغت عدتهم فى جيش مصر الفاطمية ثلاثين ألف راجل[٢] .
وهذا التحول فى سياسة صلاح الدين نحو السودانيين يوضح أهمية تجنيدهم فى الجيش المصرى ، وأن الحاكم المصرى مهما بلغ من القوة والنفوذ لا يستطيع بحال من الأحوال أن يغفل شأنهم فى تكوين جيشه ، والثابت الذى لا شك فيه أن جميع حكام مصر من زمن الفراعنة حتى اليوم لم يغب عن فهمهم هذه الحقيقة التاريخية الهامة .

وخلاصة القول أن الترك والاكراد كونوا العنصر الأساسى والهام فى العسكر ، يقل عددهم ويكثر حسب قدرة السلطان المالية فى إعدادهم والانفاق عليهم ، على حين تكون الجند من الاتراك والتركمان والاكراد وكل من قدر على حمل السلاح — وليس له عمل يتكسب منه — من المصريين والسودانيين . وأولئك يقل عددهم ويكثر حسب مركز الأمير وإقطاعه ، ووفق ما هو مقرر عليه من عدد الاجناد[٣] .

(١) ابن واصل ص ١١٠ .
(٥) الخطط ج ١ ص ١٣٩ .
(٦) Sanaullah : p. 4

وهناك عنصر ثالث ثابت من المحاربين وهم البدو ، والراجح أنهم كونوا جيشاً قائماً بذاته[١] ، ويوجد إلى جانب هؤلاء وأولئك فرق حربية حديثة العهد فى التكوين ، تعرف بالأحداث ويطلق على صاحبهم لقب مقدم الأحداث أو رئيس الأحداث[٢] ، واعتمد نور الدين على هذه الفرق اعتماداً كبيراً فى حروبه المتقطعة مع أمراء المسلمين أو مع الصليبيين . ولم يكن فى مقدوره الاستيلاء على مدينة دمشق سنة ١١٥٤ إلا بفضل مراسلته لأحداثها واستمالتهم إليه ، فما كاد يحاصر البلد حتى ثار الأحداث بقائد الحامية حتى اضطر إلى التسليم[٣] . مما يدل على نفوذ الأحداث فى المدن السورية الكبرى كدمشق وحلب وحمص وميلهم إلى العصيان والتمرد من وقت لآخر ، رغم ما تركوه من أثر كبير فى تاريخ دولة السلاجقة[٤] .

ومنذ بداية النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى صار الأحداث يسمون المتطوعة ومثال ذلك ما جاء فى ابن القلانسى أن نور الدين أمر بالنداء « فى الغزاة والمجاهدين

(١) راجع ما سبق ص ١٢ .
(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٠٨ ، ١٧٨ .
(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٥ ، ٣٢٧ — تاريخ الدولة الأتابكية ص ١٩١ .
(٤) راجع Sanaullah p. 19 — الذهبى : مخطوط تاريخ الإسلام ج ٢٥ ص ١١٠ ، ص ٢٦ ، ص ١٨ Gibb pp 26 — 27 .

والأحداث المتطوعة من فتيان البلد والغرباء بالتأهب والاستعداد لمجـاهدة الفرنج »(١) . ومن ثم إختفت كلمة أحداث من من المصادر التاريخية إختفاء تاماً طوال العهد الصلاحى وبعده وحل محلها كلمة المتطوعين . والكلمتان على كل حال يدلان على أن أفراد تلك الفرقة لم يكونوا قوة نظامية، بل كان فى استطاعتهم العودة إلى أوطانهم أينما كانو، وحيثماشاءوا العودة، وأغلب المتطوعين من الفقهاء والصوفية وأصحاب العمائم وأبنائهم ؛ وعرف هؤلاء المتطوعون بالأحداث لحداثة عهدهم بالجندية . وأسترعى لينپول(٢) كثرة عدد المتطوعة فى جيش صلاح الدين يوم حطين، وقدر ابن الجوزى(٣) الذين حضروا فتح بيت المقدس مع صلاح الدين سنة ١١٨٧ من المتطوعين زهاء عشرة آلاف من جميع الأجناس ، وزع عليهم صلاح الدين الأموال التى أخذها من الصليبيين، وكانت نيفاً وثلثمائه الف دينار . ولما كان عدد المتطوعة ينقص فى واقعة ويزداد فى أخرى طواعية لرغبتهم الشخصيـة وحميتهم الدينية ، فإن المقريزى (٤) لم يدخلهم فى حسابه عند إحصاء جيش صلاح الدين سنة (٥٧٧ هـ) ١١٨١م ، مثلهم فى ذلك مثل المحلولين من الأجناد

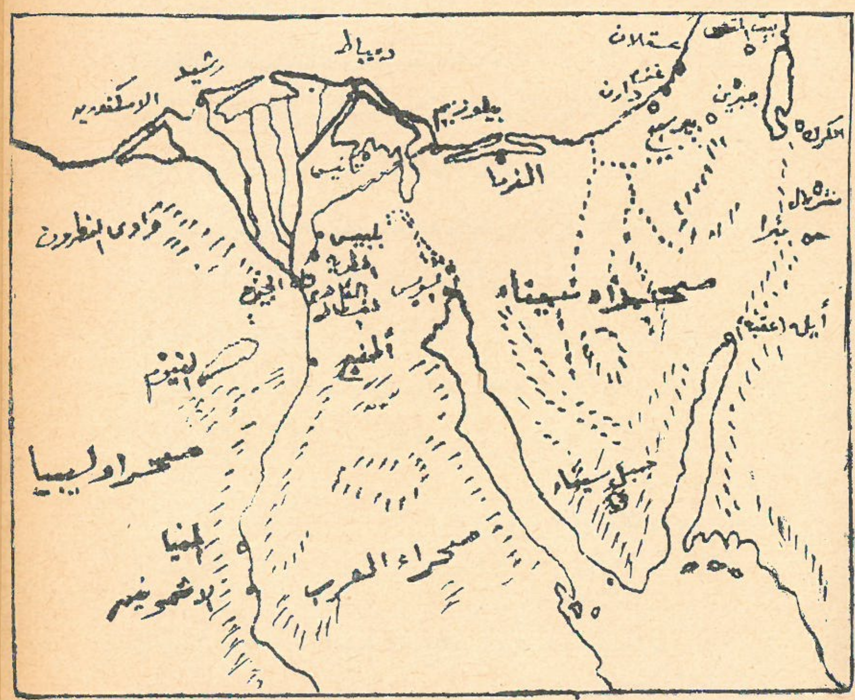
(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٠

(٢) Saladin p. 204

(٣) ابن الجوزى . مرآة الزمان جـ ٨ ص ٢٥٢ .

(٤) الخطط جـ ١ ص ١٣٩ .

والموسومين بالحوالة على العشر ، والعربان المقطعين بالشرقية والبحيرة ، والـكاتبين والمصريين . وكثيراً ما ألقى الحماسة وسوء التدبير بالمتطوعين إلى الهلاك ، كما حدث وصلاح الدين على عكا ، إذ أوغل غلاة العجم والعرب المتطوعة فى أرض العدو قرب شقيف أرنون ، وبعدوا عن الجيوش النظامية ، فحمل عليهم الصليبيون وقاتلوهم حتى أفنوهم ، وشق على صلاح الدين والمسلمين .



مصر فى القرن الثانى عشر الميلادى
عن رنسمان

ما جرى عليهم ، وكان ذلك بتفريطهم فى حق أنفسهم وعرفت الواقعة بواقعة الغزاة المتطوعة[١] ؛ ولما كان المتطوعون من البدو والأعراب وسكان القرى والأمصار وغيرهم، قد خرجوا فى النفير تلبية لقوله تعالى « وأنفروا خفافا وثقالا » ، ولم يكن لهم اسم فى ديوان الجيش كالجند من المسترزقة[٢] فإنهم تمتعوا بحظوة كبيرة لدى السلاطين ، ونالوا منهم كل عطف واحترام وتقدير من الناحيتين المادية والأدبية . فمن الناحية المادية ، رأى أصحاب السلطان نور الدين محمود كثرة خَرْجِه ، فقال له بعضهم يوما « إن لك فى بلادك إدارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء ، فلو استعنت فى هذا الوقت لكان أصلح » .

فغضب نور الدين من ذلك القول وأجابهم « والله إنى لأرجو النصر إلا بأولئك ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم . كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم على فراش بسهام لا تخطى ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عنى إلا إذا رآنى بسهام قد تصيب وقد تخطى ، وهؤلاء القوم لهم نصيب فى بيت المال كيف يحل لى أن أعطيه غيرهم[٣] » . ومن الناحية الأدبية ، يؤثر عن السلطان

---

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ١٨ .

(٢) ابن منكلى : الأحكام المملوكية ص ١٦ — النويرى : نهاية الأرب ج ٦ ص ١٥٣ .

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٤ ص ١٨١ — ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٥ .

نور الدين أيضا ، أنه كاتب الزهاد والعباد والمنقطعين عن الدنيا ، ذاكرا لهم ما لقى المسلمون من الصليبيين ، وما أصابهم من القتل والأسر والنهب ، طالبا منهم الدعاء وحث المسلمين على الغزاة . ففعلت هذه الكتب فعل السحر فى نفوسهم ، إذ كانوا يقرأونها على أتباعهم وأصحابهم وهم يبكون[١] . وسار صلاح الدين على سيرة سيده نور الدين ، وتأثر بها ونهج نهجه نحو المتطوعين من رجال الدين ، وَرَوَت عنه الرواية الأثيرية[٢] وغيرها أنه كان يحضر عنده الفقراء والصوفية ويعمل لهم السماع ، فإذا قام أحدهم لرقص أو سماع ، يقوم له فلا يقعد حتى يفرغ الفقير . وجلس صلاح الدين مرة سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨ م) يستعرض الأسرى من الصليبيين لضرب أعناقهم وأن يتولى ذلك أهل الدين والعلم والتصوف من الحاضرين ، فتقدم إمامه الضياء الطبرى ، وضرب عنق بعضهم ، وتلاه الشيخ سليمان المغربى ، وجاء دور العماد الأصفهانى ، وأمر بذلك فرفض أن يلطخ يده بدمائهم مكتفيا بأخذ أسير صغير ليربيه عنده[٣] . ويشير التاريخ الحربى إلى تبرك صلاح الدين برجال الدين من أهل الورع والتقوى

---

(١) أبو شامة ج ١ ص ١٣٣ .

(٢) ابن الأثير ج ١٢ ص ٦٣ — ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ٩٤

(٣) العماد ص ٢٢ — أبو شامة ج ٢ ص ٥ ، ١١ — راجع مقدمة
Reinaud : Extraits des Historiens Arabes

رصد
ooo الديابن والمتطلعون
الطلائع
المقدمه
اهلها واتباعها
الديابنه والمتطلعون
الثوبه داته وحارسا
رصد
الطلائع
رصد
ooo الديابن والمتطلعون
الطلائع
رصد
الحمايه
رصد
الحمايه
القلب
اهله واتباعه
الميسره
اهل الميسره واتباعها
السلطان بيته وخزائنه
الميمنه
اهل الميمنه واتباعها
الديابنه والمتطلعون
الطلائع
رصد
الطلائع
رصد
ooo الديابنه والمتطلعون
الحماية
راية الاسلام
الحرس
خزينة السلاح والاموال
الاسواقه والتجار والدواب
الاسواق والتجار والدواب
الحمايه
اهل الساقه واتباعها
الساقه
الحمايه
رصد
الديابنه والمتطلعون
الطلائع
الطلائع
الطلائع
ooo
رصد
ooo
رصد
الديابنه والمتطلعون
الديابنه والمنتطلعون ooo
رصد

صورة المعسكر الاسلامي

عن كتاب فرسة الكتب

واستشارته لهم قبل القيام بعملياته الحربية . إذ حدث قبل قيامه بحملة ١١٧٧م لمهاجمة الصليبيين فى الرملة — أن قصد صلاح الدين زيارة الشيخ محمد بن الموفق نجم الدين أبو البركات لوداعه ، فالتمس الشيخ من صلاح الدين أن يسقط رسوماً لا يمكن اسقاطها فغضب ، وقال لصلاح الدين « قم لا نصرك الله » . ووكزه بعصا فوقعت قلنصوته من رأسه ، فوجم لها ثم نهض متوجهاً إلى الحرب ، فكسر وأسر كثير من أصحابه . وظن صلاح الدين أن ذلك بدعوة الشيخ ، فجاء وقبل يديه وسأله العفو . وقال صلاح الدين يوماً لابن أخيه تقى الدين عمر ، « لا طاقة لنا بهذا الشيخ فأرضه » ، وكان تقى الدين ، قد أغضبه فشكاه الشيخ لصلاح الدين[1] .

وحين توجه صلاح الدين إلى حرب الأمير عز الدين صاحب الموصل (١١٨٥ م) دخل على الشيخ حياة ابن قيس الحرانى — وكان منزله مزار الملوك والأعيان يتبركون بلقائه، وطلب منه صلاح الدين الدعاء ، فأشار عليه بترك السير إلى الموصل، فلم يقبل صلاح الدين النصح ، وسار إليها فلم يظفر بها[2] . ويدل هذا التصوير التاريخى على مكانة رجال الدين وسيطرتهم الروحية على أذهان

---

(١) الذهبى حـ ٢٦ ص ١٢٥

(٢) نفس المرجع حـ ٢٦ ص ٥ .

الناس جميعاً ، بصرف النظر عن روح المبالغة التى صيغ بها ؛ وإن كان الجانب الدينى لا ينكر أثره فى حروب العصور الوسطى ، إذ انشغل به الشعوب والحكومات إلى حد الجنون ، ولا أدل على ذلك من أن الحكومات قد أسلمت زمام الدفاع والقتال لرجال الدين ، فرجل كالشيخ عيسى الهكارى مثلا ، المعروف عنه أنه تفقه واشتغل بالتدريس قبل أن يكون قائداً عسكرياً ، فأجاد فى الناحيتين وأحسن الإجادة[1] . لاعجب إذن من تقاطر المتطوعين على حمل السلاح والانخراط فى جيش مصر تحت زعامة صلاح الدين ، واهتمام الخطباء من المشايخ فى المساجد بالدعاء لصلاح الدين ولجيشه بالنصر ، وحث الناس وترغيبهم على التطوع فى الجيش. فإذا ما نزل الخطباء من على منابرهم ردد المصلون الهتافات والدعوات ، مقبلين زرافات ووحداناً من جميع الجهات إلى معسكر صلاح الدين[2] . وما أكثر الشبه بين نصيب المتطوعين فى عصر صلاح الدين من الجهاد ، وبين متطوعى اليوم بصدد قضية فلسطين وعدم الاعتراف بقيام دولة إسرائيل .

ويلحق هؤلاء جميعاً من عسكر وجند ومتطوعة ، فرقة النشابين الذين يرمون بالنشاب ، والنفاطين الذين يرمون النفط

(١) راجع الذهبى حـ ٢٦ ص ٨٩ .

(٢) Michaud: Histoire de Croisades V. 2 P. 113.

لإحراق حصون الأعداء ، والمنجنيقيين رماة المنجنيق وهم أباء المدفعية هذه الأيام ، والعيارين وهم رماة الحجارة وكانوا يملأون مخالى الخيل بها[1] . ويلحق هؤلاء وهؤلاء اتباع المعسكر أو الأوباش والرعاع ، ويسمون سوقه أو حواش[2] . وكثيراً ما سبَّب الأخيرون لصلاح الدين ارتباكا كثيراً فى صفوفه الخلفية حين ينتهزون فرصة اشتعال الحرب واحتدام القتال بين الطرفين، فيمدون أيديهم إلى خيام المعسكر وينهبون ما تصل إليه من غالٍ ومرتخص[3] .

ولا تكتمل الصورة الحقيقية لجيش مصر على عهد صلاح الدين دون الإشارة إلى نصيب المرأة فى حروب هذا العصر ، إذ تحدثت الرواية الشرقية كثيراً عن المرأة الغربية بنوع خاص، وعن مدى مشاركتها للرجل فى تلك الحروب الطاحنة ، فتقول أنها امتطت الجواد وهى متخفية فى زيها العسكرى ، تحارب المسلمين اعتقاداً منها بأن ذلك من صميم العبادة والدين ، فتظل تمارس القتال جنباً إلى جنب مع الرجل دون أن تُعرف شخصيتها ، أو يُكتشف أمرها إلا بعد القتل أو الأسر. فحين حاصر صلاح الدين بيت المقدس

(١) تاريخ التمدن الإسلامى حـ ١ ص ١٢٠ .

(٢) Sanaullah opcit P. 20

(٣) ابن الأثير حـ ١٢ ص ٢٥ .

سنة ١١٨٧م. برزت فتاة صليبية أسمها مرجريت ومعها مقلاع وعلى رأسها خوذة، واخترقت صفوف المقاتلين تحت نيران المسلمين حتى تمكنت من النجاة، واخترقت سوريا والأناضول عائدة بمفردها إلى أوربا؟ على حين أحست امرأة أخرى بالعار الذى لحقها من جراء فرار زوجها من الحرب. فألزمته العودة إلى الشرق، وآثرت أن تراه ميتاً عن أن تراه بعيداً عن صفوف المحاربين[١]. وأظهرت إحداهن ضرباً من الشجاعة النادرة فى حصار عكا (١١٨٩ — ١١٩١ م) عندما أحدث المسلمون ثغرة فى تحصينات الصليبيين، فوقفت تلك المرأة فى الثغرة بقوس من الخشب ترمى، فلم تزل تقاتل حتى قتلت. وأوصت زوجها وهى فى النزع الأخير بأن يدفنها فى الخندق لتنال ثواب المقاتلين والمحاصرين[٢].

وفى سنة ١١٨٩ (٥٨٥هـ). وصلت ميناء عكا مركب صليبية بها ثلثمائة امرأة أوربية، من أجمل النساء الغربيات للترفيه عن العساكر الصليبية، ولصرف العساكر الإسلامية عن القتال بتسبيل فروجهن على قول العماد[٣]. ولا ريب أن هذا السلاح الفتاك آذى المحاربين المسلمين، وضايق فقهاءهم المعاصرين، وآية ذلك

(١) Michaud opcit Vol P. 137

(٢) العماد ص ١٧١ Lane Poole: Saladin P. 264 حاشية
Michaud opcit: Vol 11 P. 124.

(٣) العماد ص ١٦٩ — أبو شامة ح ٢ ص ١٤٩ .

أن صلاح الدين أشار إليه فى كتابه إلى الخليفة العباسى ببغداد، إذ يقول « وكانت منهن ملكة كبيرة استتبعت خمسمائة مقاتل رامح ونابل، والتزمت مؤونتهن، فصودف مركبها بقرب الإسكندرية فأخذت رجالها[١] ».

وعلى نقيض المرأة الغربية، خضعت المرأة المسلمة لتقاليدها الدينية والاجتماعية، فلم يسمح لها بالظهور على مسرح الحرب، حتى وإن ساهمت فيه بنصيب فإن المؤرخ الحربى المعاصر لم يشر إليها عن عمد مراعاة لآداب المجتمع وتقاليده، وهو إذ يسلك هذا المسلك، لم يفته أن يسجل نصيبها المشكور الذى قامت به فى ميادين السياسة والإدارة، والخدمات الطبية والاجتماعية، فى الصفوف الخلفية لجيوش المسلمين. ذكر على سبيل المثال عصمت الدين خاتون بنت معين الدين ابن أُنر، أرملة السلطان نور الدين محمود، وزوجة السلطان صلاح الدين من بعده. وصفها المؤرخ المعاصر بحدة الذكاء ونفاذ البصيرة، وأن صلاح الدين كان يصدر عن رأيها، فلما بلغته وفاتها سنة ١١٨٤ (٥٨٠ هـ) وهو مريض بمدينة حران تزايد مرضه. وهذه المرأة هى صاحبة الفضل فى بناء مدرسة بدمشق، وخانقاه معروفة باسمها على نهر بانياس[٢].

(١) ابن واصل ص ٣٦٤ — أبو شامه ح ٢ ص ١٦٢ .

(٢) ابن الجوزى : مرآة الزمان ص ٢٤٥ — العينى ح ١ ص ٢٤
ابن العماد : شذرات الذهب ح ٤ ص ١٧٨.

وعرف كذلك عن ست الشام بنت أيوب وأخت صلاح الدين ، أنها صنعت الأشربة والأدوية والمعاجين والعقاقير فى كل سنة بألوف دنانير ، وفرقتهـا على الجرحى والمرضى من المدنيين والعسكريين [١] .

وهناك الأديبات اللاتى تخصصن فى البيان والخطابه وإثارة حماسة الجند فى القتال ، ومنهن أم على تقيه بنت أبى الفرج غيث ابن عبد السلام بن محمد بن جعفر السلمى الأرمنازى التى نظمت قصيدة حربية ، ووصفت الحرب وما يتعلق بها أحسن وصف ، وأهدتها للملك المظفر تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين ، غداة وفاة تاج الملوك أبو سعيـد بُورى بن أيوب أخى صلاح الدين بطعنه أصابته فى ركبته يوم نزول المسلمين على حلب ١١٨٣م. (١٦ محرم سنة ٥٧٥) ؛ فحزن عليـه صلاح الدين وعزم على تجنيد أقلام المسلمين وسيوفهم ، وتعبئة قواهم المادية والمعنوية فى سبيل مجاهدة الصليبيين ومن والاهم من الخونة المسلمين[٢] . وأورد أسامة بن منقذ عن أمه ، أن الاسماعيلية هاجمت ذات مرة مدينة شيزر فى غيبة رجالها ، فوزعت أم أسامة السلاح وألبست إبنتها الخف والإزار ، وأجلستها على سطح بيت مشرف على الوادى ،

---

(١) النويرى : مخطوطة نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٢٠ .

(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ١٤١ (ليدن) .

حتى إذاما انتهى الأعداء اليها ، دفعت ابنتها ورمتها إلى الوادى لتقاتلهم . وظلت البنت تدفعهم بكل قواها حتى سقطت ميته [١] . وخلدت أسمها بين الشهداء والشهيدات من الفتيان والفتيات .

وهكذا شاد التاريخ بجهاد المرأة الشرقية فى العصور الوسطى الاسلامية ومشاركتها الرجل فى كل الميادين، بما لا يقل أهمية عن جهادها فى العصر الحديث ، فضلا عن تمسكها بتقاليدها الاجتماعية وروح الشرع الشريف ،وما ينكر للنساء الكرام الأنفه والنخوة والاصابة فى الرأى على قول ابن منقذ[٢] .

ومهما كانت العناصر التى ساهمت فى تكوين جيش مصر على عهد صلاح الدين ،فإنه قسمه إلى عدة فرق تشبهها الوحدات واللواءات فى الوقت الحاضر ، وتنسب كل واحدة منها إلى سلطان سابق ؛ فيقال المماليك النورية نسبـة إلى السلطان نور الدين محمود ، ومن أكبر أمرائها جورديك النورى الذى خـدم صلاح الدين فى جميع غزواته ، وهو قاتل شاور الوزير الفاطمى بمصر وابن الخشاب أحد المعارضين لصلاح الدين بحلب ، واستناب صلاح الدين الأمير جورديك بالمقدس بعد عقد الهدنة مع الصليبيين سنة ١١٩٢ ، وتوفى جورديك سنة ١١٩٧ [٢] . ومنهم كذلك

---

(١) أسامه : كتاب الاعتبار نشر الدكتور فيلب حتى ١٩٣٠ . المقدمة

(٢) أسامة ص ٩٢ .

(٣) أبو شامه : ذيل الروضتين ص ١١ .

شرف الدين برغش النورى الذى استشهد على الكرك سنة ١١٨٣ م(١) . أو تنسب الفرقة إلى أحد القواد العظام السابقين ، فيقال المماليك الأسدية نسبة إلى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين ، وعدتهم خمسمائة مملوك ؛ مالوا إلى صلاح الدين غداة وفاة عمه ١١٦٩ م . وناصروه فى الخلاف الواقع بينه وبين القادة النوريين فيمن يتولى الوزارة الفاطمية ، ومنذئذ أحاط صلاح الدين نفسه على الفور بهم . إذ يضرب بهم المثل فى الشجاعة والإقدام ؟ ومن أعيانهم الفقيه عيسى الهكارى الذى أسره الصليبيون فى وقعة الرمله سنة ١١٧٧ وافتداه صلاح الدين بستين ألف دينار ، وتوفى سنة ١١٨٩ بالخروبه وصلاح الدين على حصار عكا .

ومنهم كذلك جاولى الأسدى ، وبهاء الدين قراقوش وزير أشغال صلاح الدين وصاحب الأخبار الطوال فى بناء عمائره الحربية (٢) ثم رسلان بغا ، ومقدم هذه الطائفة هو سيف الدين ياز كوج (٣)

أما مماليك صلاح الدين فاطلق عليهم عدة أسماء ، فيقال لهم المماليك الصلاحية نسبة إليه ، أو الناصرية نسبة إلى لقبه «الملك الناصر» ، أو جند الحلقة ، ومن كبار أمرائهم علم الدين كرجى

(١) ابن شداد ص ٥٥ .
(٢) ابن الأثير حـ ١١ ص ٢٤١ و ٢٨٥ و ٢٩٧ .
(٣) ابن شداد ص ٩٣ .

وسيف الدين سنقر الدووى ، وأيبك الساقى زاده ، وركن الدين منكورش ، وفارس الدين ميمون القصرى(١) . وأبو المنصور جهاركس الملقب فخر الدين ، وكان من أكبر أمراء الدولة الصلاحية ، وهو مقدم الطائفة الناصرية والحاكم بديار مصر فى أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين بن يوسف ، وبموته انقضى أمر تلك الطائفة(٢) .

وتعتبر الطوائف الثلاث النورية والأسدية والصلاحية ، صب الجيش وقوته الثابتة ، وعليهم تقع الحروب والغزوات والأعمال الحربية الهامة ، كصيانة الحدود والحصون والمواقع الاستراتيجية ، ولا يغادرون العاصمة إلا مع السلطان وللأغراض الخطيرة ، ويطلق على رؤسائهم لقب « مقدمو المماليك السلطانية » بمعدل مقدم لكل خمسين مملوكا(٣) على سبيل الترجيح . وقد تنسب

(١) العماد ص ٥٠ — الخطط المقريزية حـ ٣ ص ١٥١ — ابن الأثير حـ ١٢ ص ٥١ .

(٢) ابن خلكان حـ ٣ ص ٣١٥ . مع ملاحظة أنهم غير المماليك الصلاحية الواردة فى دولة المماليك نسبة إلى مماليك الصالح نجم الدين أيوب راجع Ayalon: opcit P. 207

(٣) ذكر Ayalon P. 204 هذا العدد عن دولة المماليك ، وبما أن القواعد الحربية واحدة لكل من الدولتين فالراجح أن الأمير الصلاحى تقدم على خمسين مملوكا كذلك . وانظر ابن الأثير حـ ١٢ ص ٣٦ و ٣٨ و حـ ١١ ص ٤ و ٣١ و ١٧٤ و ١٩٦ .

الفرقة إلى جنسية أفرادها ، فيقال الطائفة الكردية نسبة إلى الأكراد ، وكبيرهم سيف الدين غازى بن المشطوب ، ولم يكن فى أمراء الدولة الصلاحية أحد يضاهيه ، ولا يدانيه فى المنزلة وعلو المرتبة ، وكانوا يسمونه بالأمير الكبير ، وهو لقب لا يشاركه فيه غيره ، أسره الصليبيون وهم على حصار عكا ، وفرح صلاح الدين بخلاصه من الأسر سنة ١١٩٢ ، ومات المشطوب فى نهاية تلك السنة (٢٦ شوال ٥٨٨)[١] . ومن تلك الطائفة أيضاً حسام الدين أبو الهيجاء السمين.[٢] وتفرع من الطائفة الكردية طوائف أخرى مثل الهكارية والمهرانية والحميدية والزرزارية[٣]

واحتفظ سلاطين دولة المماليك فيما بعد بقاعدة إطلاق إسم السلاطين السابقين على بعض فرق الجيش، مع إدخال تغييرات تطلبتها أحوال دولتهم ، إذ تكون الجيش على عهدهم من أنواع ثلاث : أولها مماليك السلطان الحاكم وهم من فئات ثلاث ؛ القرانصة (القرانص) وينتسبون إلى السلاطين السابقين ، فيقال الظاهرية

---

(١) ابن خلكان ح ١ ص ٨٦ .

(٢) ابن الأثير ح ١١ ص ٥٧٢ — وسمى بالسمين لصغر رأسه وكبر بطنه بحيث كان على رقبة البغلة ، ورآه فى بغداد سنة ٥٩٣ هـ كواز فعمل كوزاً على شكله ، وعمل البغاددة بعد ذلك كيزانا وسموها أبا الهيجاء السمين على صورته — ذيل الروضتين ص ٩ .

(٣) العماد ص ٢٢٠ وكنز الدرر ح ٧ ص ٧١ .

والموالية والناصرية ؛ ثم الصيفية وهم مماليك أحد الأمراء المحولين إلى خدمة السلطان الحاكم لوفاة أميرهم ، أو لطرده من الخدمة ؛ وأخيراً المماليك الجدد ويسمون المشتروات والأجلاب أو الجلبان ؛ وثانيها مماليك الأمراء ، ويسمون أجناد الأمراء ، أما النوع الثالث فهم جند الحلقة أو أجناد الحلقة وهى فرق حربية من الفرسان الأحرار وليست مماليك[١] .

على أن المراجع الأيوبية — فيما يعلم الباحث — خلت ذكر تفصيلات عن تقسيم تلك الطوائف إلى أقسام أصغر منها ، ليعرف كل أمير وجندى رتبته ومركزه فى الجيش ، غير أن ما جاء فى مراجع دولة المماليك . وهو عصر اكتمال وإستقرار النظم الحربية المصرية — يلقى الضوء على تلك التفصيلات ؛ إذ أن أكابر الأمراء من له إمرة مائة فارس وتقدمة ألف فارس (ويقابله الكتيبة اليوم) ، ومن هذا الفريق يكون أكابر النواب ، وربما زاد بعضهم بالعشر والعشرين فوارس ؛ ثم أمراء الطبلخانات ومعظمهم من يكون له إمرة أربعين فارساً ، وقد يزيد إلى السبعين (وتسمى اليوم السرية) ولا تكون الطبلخانات لأقل من أربعين ، ثم أمراء العشراوات (وتسمى اليوم الجماعة) ومنهم من يكون له عشرون فارساً ، ولا يعد إلا فى امراء العشرات ، ثم

---

(١) راجع التفاصيل فى Ayalon P.P. 204—220

جند الحلقة ، وهؤلاء لـكل أربعين نفراً منهم مقدم ، (ويقابلها الفصيلة اليوم) ليس له حـكم عليهم إلا إذا خرج العسكر كانت مرافقتهم معه وترتيبهم فى موقفهم إليه [١] . ويلاحظ أن مناشير جند الحلقة والأمراء من السلطان ، أما أجناد الأمراء فمناشـيرهم من أمرائهم ، وكان منشور الأمـــير يعين فيه للامير ثلث الإقطاع ولأجناده الثلثان . ولا يمكن أن يشارك الأمير أو مباشروه أحداً من الأجناد فيما يخصهم إلا برضاهم [٢] ولا بد من أن يكون لـكل رتبه علامة تميزها عن سواها . كما يتميز الضباط اليوم عن بعضهم بعضاً وعن عساكرهم ، غيران شيئاً صريحاً بهذا الشأن لم يرد ذكره فى المراجع التى تناولها الباحث . ويلاحظ كذلك أن كلمتى أمـــير ووالى كثيراً ما يرد ذكرهما فى المصادر الأيوبية ، ويقصد بالأولى رئيس القوات الحربية . على حين يقصد بالثانية الحاكم المدنى للاقليم . ويحدث أن تجتمع

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ح ٢ ص ٨٣ — اعتبر البعض هذا التقسيم المملوكى هو بعينه ما كان جاريا على عهد صلاح الدين ، وهو مايشك فيه الباحث ـ راجع الحروب الصليبية لرفيق التميمى ص ١٤٧ .

(٢) الخطط المقريزية ح ١ ص ٣٥٠ ـ وشاع هذا التقسيم للجيوش على تلك الصورة بين دول الشرق والغرب وقت ذاك ، فرتب المغول جيوشهم الوفا ومئات وعشرات (الغازانى ح ٢ ص ٣٧١) ، وكذلك فعل الإنجليز نقلا عن المسلمين فيما يبدو (Fortescue P.30)

الوظيفتان فى شخص واحد على قول بن الأثير والمقريزى [١] . ويحمل قائد عام الجيش — بعد السلطان — لقب أمير الجيوش أو صاحب الجيش أو عارض الجيش ، ويليه قائد القواد وهو رئيس القواد [٢] .

---

(١) ابن الأثير ح ١٢ ص ٢٤ و ٥٠ والسلوك ح ١ قسم ١ ص ٧٦و٨٢ — Sanaullah opcit P. 3 .

(٢) النويرى ح ٦ ص ٥٧ وابن الأثير ح ١ ص ٣٨٢ و ح ١١ ص ٩٢ — Sanaullah op cit P. 20.

الفصل الثانى

فنون القيادة والميدان

ديوان الجيش — صاحب الجيش وكاتبه — هيئة أركان حرب الجيش (مشور صلاح الدين) أهم إجتماعات المجلس ومناقشاته — حرمان المصرى من الجندية — نظام تعبئة العسكر فى المعركة — وصف التعبئة فى أشهر معارك صلاح الدين — أثر القرآن والأحاديث فى رفع معنوية العسكر — الشئون الدينية وقاضى العسكر — اليزك — الغارة الليلية — البدو خير وشر — الحرب الخاطفة — قتال التناوب — الحرب خدعه — نظام الكمائن — تخطيط العسكر — أى فصول السنة تصلح للحرب شهر رمضان والقتال — الجمعة أسعد أيام المسلمين للقتال .

وأشرف على شئون الجيش من تجنيد وعتاد ، على عهد الأيوبيين إدارة يطلق عليها « ديوان الجيش » وأحياناً « ديوان الإقطاع [1] » ،وشاع استعمال التسمية الأولى فى العصر الأيوبى ، على حين دلت التسمية الثانية فى صورة قاطعة على مبلغ اعتماد النظام

(١) ابن فضل الله العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف ص ٨٩ .

الحربى الأيوبى على التوزيع الإقطاعى . أما الفاطميون فأطلقوا على ديوان الجيش اسم ديوان المستوفى ، والمستوفى هو الذى يقابل صاحب الجيش فى العهد الأيوبى ، وناظر الجيش فى زمن المماليك. ولصاحب الجيش اختصاصات واسعة ، منها أن ينتقل أثناء المعركة من صف إلى صف للتأكد من سلامة الخيل ، وجودة السلاح وعدد الجنود ،واستعراض ملابسهم وزينتهم، وأنهم جميعاً فى حال مرضى [1] .

ويلى صاحب الجيش فى الأهمية كاتب الجيش ، وتشمل اختصاصاته تنظيم أسماء أرباب الإقطاعات ، والنقود، والمكيلات من الأفراد على اختلاف طبقاتهم ،والمماليك السلطانية ،وأجناد الحلقة وأمراء التركمان والعربان ، ويضع لذلك جريدة مقفاة على حروف المعجم ، يثبت فيها أسماءهم تسمى الجريدة الجيشية ، ويبسط جريدة ثانية خاصة بالإقطاع وصاحبه ونوعه وقدره ، ويخص جريدة ثالثة لأسماء أرباب النقود والمكيلات وقيمتها [2] .

ويبدو أن صلاح الدين أسند وظيفة صاحب الجيش إلى أحد الأكراد ، أما وظيفة كاتب الجيش فكانت من نصيب أحد المصريين ، واسمه المهذب الخطير المشهور بابن مماتى، وكاتب ديوان

(١) راجع القلقشندى ج ١١ ص ٩٣ عن اختصاصات صاحب الجيش

(٢) النويرى ج٦ ص ٢٠٠ .

الجيش أواخر أيام الفاطميين . وظل ابن مماتى فى هذه الوظيفة على عهد صلاح الدين مدة ليست بالقصيرة ، وخلفه فى ديوان الجيش مدة طويلة ابنه الأسعد ، ولقيه ابن خلكان المؤرخ المعروف بالقاهرة وهو على ولاية ذلك الديوان(١) . ومما يستوجب الإلتفات هنا ،أن أبا المهذب الخطير وابنه الأسعد ،هما المصريان الوحيدان اللذان توليا منصباً خطيراً فى دولة صلاح الدين الكردية، إذ المعروف أن صلاح الدين أسند المناصب الكبرى فى الجيش المصرى وإدارته إلى الأكراد وغيرهم من غير المصريين . ولهذا كثرت الدسائس والمؤامرات التى حيكت حول هذا الرجل وولده من غير ما سبب واضح ، فإن قيل لتعصبهما للنصرانية ،فابن خلكان يدفع عنهما هذه التهمة ،ويقر صدق إسلامهما وإطعامهما لفقراء المسلمين خاصة(٢) . وإن قيل لمصريتهما وتشيعهما للفواطم، فياقوت يدفع عنهما هذا ،بدليل إسناد ديوان المال وهو أجل ديوان من دواوين مصر إلى الأسعد فى الأيام الصلاحية والعزيزية ، فضلا عن ديوان الجيش(٣) . وكان فى استطاعة صلاح الدين أن يسند هذه المناصب إلى سواهما من غير المصريين ، فاختياره دليل الثقة والكفاءة ، وهما فى حد ذاتهما كفيلان بإثارة الحسد والغيرة

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٠٠
(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٩٩
(٣) ياقوت : معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٤٨

فى نفوس موظفى الدولة ،أمثال ابن شاكر وابن الحجاج وغيرهما ممن مشى بينهما وبين صلاح الدين(١) .

ومن معاصرى ابن مماتى وابنه كذلك ، القاضى عبد الجبار ابن يوسف أبو المجد المقدسى ، الذى ولى ديوان الجيش بمصر بعد الأسعد بن مماتى ، وظل متولياً هذا الديوان حتى وفاته فى فبراير سنة ١١٨٧(٢) (ذى القعدة سنة ٥٨٢هـ) ، ثم القاضى ضياء الدين ابن ابى الحجاج ، الذى وصفه أبو شامه بأنه أعلم الناس بشئون الأجناد ، وكان متولياً إحدى وظائف الدولة زمن صلاح الدين ، وعاش حتى صار صاحب ديوان الجيش أواخر دولة الأيوبيين ، ومات قتيلا فى واقعة المنصورة(٣) سنة ١٢٤٨ (٦٤٧ هـ) .

ولما انتقل صلاح الدين إلى دمشق فى صيف ١١٨٢، واتخذها مقراً لعملياته الحربية ضد الصليبيين ، أنشأ فرعاً من ديوان الجيش بها ، وأسند ولاية ذلك الفرع إلى والى دمشق بدر الدين مودود المعروف بالشحنة(٤) . وتنقسم الخدمة فى هذا الفرع قسمين : قسم لأمور

(١) ياقوت ج ٢ ص ٢٤٩ و٢٥١
(٢) الذهبى ج ٢٦ ص ٣٧
(٣) أبو شامه : ذيل الروضتين ص ١٠٤ و ٢٠٣
(٤) الشحنة . جمعها شحانى وشحن ، وهو رئيس الشرطة والموكل بالأمن فى بلد من البلاد ،والشحنكية هى وظيفة رياسة الشرطة — راجع السلوك ج ١ قسم ١ ص ٣٥ وقسم ٣ ص ٩٧٩

الأجناد وإقطاعهم ، وقسم للرواتب وأسماء كل مرتزق[١] .

أما صناعة العمليات الحربية وإقرارها والإشراف عليها ، فقد أقام صلاح الدين لها مجلس شورى ، ينعقد كلما دعت الضرورة إلى انعقاده ، واستفتى صلاح الدين ذلك المجلس فى عمليات حربية كثيرة وعمل بفتواه . وتكون المجلس من صلاح الدين رئيساً ، ومن عضوية أخيه الملك العادل أبو بكر ، وأولاده وأولاد أعمامه والرفاق القدامى ، والاتباع الجدد ، ووزيره القاضى الفاضل ، وسكرتيره الخاص العماد الكاتب الأصفهانى ، وقاضى الجيش بهاء الدين بن شداد . وأعطى صلاح الدين أعضاء المجلس حق إبداء الرأى فى صراحة تامة ، وإن كان من المقطوع به أن عقلية صلاح الدين وإرادته هما المسيطران على المجلس . ولم يحدث مطلقاً أن علا صوت أحد الأعضاء على الآخرين ، وانفرد بالمناقشة دونهم بغية التأثير على صلاح الدين[٢] .

على أن صلاح الدين اهتم دائما بمشورة أخيه العادل وسماعه رأيه بالذات إن كان حاضراً ، فإن لم يكن حاضراً لم يقطع أمراً حتى يكاتبه بجلية الأحوال ، ثم يسمع رأيه فيها ، حتى قيل ـ أن حرص صلاح الدين على مكاتبته أخيه بالأخبار حين بعده عنه ، وإنتظاره

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٤٢ وراجع Runciman A Hist. of the crusades V, H P, 436

(٢) Lane Poole His histP. 196 —Saladin P. 260

لجوابه قبل أن يمضى فيما هو بصدده — فوّت عليه كثيرا من المنافع الحاصلة للدولة وللجهاد .[١] وكذا أرجع البعض[٢] نقل العادل من مصر إلى حلب ١١٨٣ (٥٧٩ هـ) إلى رغبة صلاح الدين فى أن يكون قريبا منه ، لأنه لا يقطع أمرا دون مشورته . ويرجع أقدم نص عن أول إجتماع لهذا المجلس الحربى ، إلى الجمعة الأولى من المحرم ٥٦٧ هـ (١١٧١) ، حين جمع صلاح الدين الأمراء وشاورهم فى رغبة الخليفه العباسى ، ونور الدين محمود سلطان دمشق فى القبض على آخر الخلفاء الفاطميين وهو العاضد وأهله ، والخطبة للخليفه العباسى المستضىء ، فمنهم من خوف صلاح من الأقدام على تنفيذ هذه الرغبة ، ومنهم من هون عليه[٣] . وخرج صلاح الدين عاقداً العزم على إيثار الهوادة والتدرج . وفى نفس الشهر والسنة دعى صلاح الدين المجلس إلى الانعقاد ، بعد أن بلغه عزم نور الدين على قصده مصر وإخراجه منها ، وحضر الاجتماع والده نجم الدين أيوب ، وخاله شهاب الدين محمود الحارمى ، وأهله وسائر الأمراء . ودار الحوار حول الحيلولة بين نور الدين ووصوله مصر . وما انتهى إليه رأيهم فى ذلك . تقول الرواية[٤] ، أنه لما عرض صلاح الدين

(١) أبو شامه حـ ٢ ص ٥٢ .

(٢) العينى حـ ١ قسم ١ ص ٨ .

(٣) ابن الأثير حـ ١١ ص ٢٤٢ .

(٤) ابن الأثير حـ ١١ ص ٢٤٤ .

الموضوع عليهم ، لم يجبه أحد بكلمة واحدة ، فقام تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين ،وقال بمقاتلة نورالدين وصده عن البلاد إذا جاء ، ووافقه غيره من أهله . فاستعظم نجم الدين أيوب هذا الرأى وأنكره ، وشتم تقى الدين وأقعده ، واقترح إنقاذ الموقف مع نورالدين بالسياسة لا بالحرب ،بدليل قوله لابنه صلاح الدين «الأيام تندرج والله كل وقت فى شأن »[١] . وتصور الرواية نجم الدين فى صورة الرجل الحريص على مستقبل ولده ، وتصفه بالمكر والكيد والرأى والعقل ، وهى صفات الخبير العليم بشئون السياسة والحرب . كما تصور صلاح الدين مطيعاً لنصائح والده ، متخذاً منها دستوراً للمستقبل ،بدليل موقفه السالب عندما بلغته الأخبار بعزم نور الدين على المسير إلى مصر لمحاسبته ١١٧٠ م ، وبدليل حسن معاملته لإسماعيل بن نور الدين ، حين حاصره بمدينة حلب ١١٧٦ م ، وانتظم الصلح بينهما على أن يمتلك اسماعيل مدينة حلب وحدها ، وبدليل نزول صلاح الدين عن قلعة عزاز قرب حلب لابنة نور الدين فى نفس السنة .

غير أن صلاح الدين انحرف عن هذه السياسة فى معاملته لأهل الموصل سنة ١١٨٥ م ، حين جاءته ابنة نور الدين ، ووالدة

---

(١) السلوك حـ ١ قسم ١ ص ٤٩ — العينى حـ ١ قسم ١ ص ٨ .
Runciman : op. cit. P. 394.

عز الدين صاحب الموصل . وغيرها من النساء وجماعة من أعيان المدينة ، يطلبون منه المصالحة ورفع الحصار عنها . فأحضر صلاح الدين مشوره فى يونية من تلك السنة واستشارهم فيما يفعله ، فأشار أكثرهم باجابتهن إلى ما طلبن منه ، وأشار الفقيه عيسى الهكارى، وعلى بن أحمد المشطوب وغيرهما ، من الهكارية والاكراد برفض طلبهن ، ووافق ذلك الرأى هوى صلاح الدين ، فأعادهن خايبات ،واعتذر بأعذار غير مقبوله ، وشدد على المدينة الحصار ، وكان بن الأثير المؤرخ المشهور وقتذاك بداخلها ، وشهد غضبة المواصلة لرد صلاح الدين النساء خايبات ، كما شهد استماتة جندها فى الدفاع عن أبراجها ،حتى عجز صلاح الدين عن فتحها ، وقبح القاضى الفاضل وزير صلاح الدين موقفه هذا من النساء[١] . وإنها لكبيرة على صلاح الدين أن يقف هذا الموقف وينساق وراء أقلية مغرضة ، وهو الذى عرف عنه — فى أكثر من موطن — التسامح مع أسرى الصليبيين .

لماذا إذن خرج صلاح الدين عن جادة الصواب ؟ السبب فى ذلك فيما يبدو ،أنه كان قليل الثقة فى إخلاص المواصلة له ، نتيجة لتجاربه السابقة معهم ، فأراد أن يكون فتح الموصل سيفاً لاصلحا ، حتى لا تقوم لها قائمة بعد ذلك الفتح ، ولتكون عبرة

---

(١) ابن الأثير حـ ١١ ص ٣٦٦ .

لما حولها من الحصون الجزرية والأرمينية ،وحتى يستطيع أن
يصفى مشاكله نهائياً مع أمراء المسلمين بقوه السيف ،لأن الوقت
لا يسمح بالمناقشات والمفاوضات ، ومصلحة المسلمين وخيرهم
فى المناجزة والسرعة ، ليتفرغ لجهاده الأكبر مع الصليبيين :

وحينما استعصت مدينة صور الصليبية على صلاح الدين ، عقد
مشوراً فى شوال ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) افتتحه بقوله : « هذه
بلد حصين ، فى البحر ثلاثة أرباعها ، ومن إحكام العزم تكميل
الآلات وتركيب الأبراج والدبابات ، واستحضار كل ما يراد
للحصار . » [١] وناقش الأعضاء بيانه وانقسموا فريقين ، فرأى
أحدهما رفع الحصار لكثرة القتلى والجرحى ، وقلة الأموال ومجئ
الشتاء ، على أن يعودوا فى الربيع ، وهو قول الأغنياء ، خوفاً من
أن يقترض السلطان منهم ما ينفقه فى العسكر ، ورأى الفريق
الآخر ومنهم السلطان والأتقياء من الأمراء ، كالفقيه عيسى وحسام
الدين طمان وعز الدين جورديك النورى ، الاستمرار فى محاصرة
صور ومضايقتها حتى تسقط [٢]، وتغلب الفريق الأول وكان
لتغلبه أثر سئ فى العمليات الحربية اللاحقة ، لأن رفع الحصار عن
صور غدا نقطة تحول خطيرة فى انتصارات صلاح الدين ، فتمت

(١) العماد ص ٦٠ .
(٢) أبوشامه حـ ٢ ص ١٢٩ — ابن الأثير حـ ١١ ص ٣٦٦ .

فى عضد المجاهدين [١] .

وفى حصار الصليبيين لعكا ، انعقد مجلس الشورى أكثر من
مرة ، منها اجتماع عقد يوم الخميس ١٢ أكتوبر سنة ١١٨٩
(رمضان ٥٨٥) ، إثر هزيمة المسلمين وتراجعهم عن محاصرة
الصليبيين ، وشهد الاجتماع المؤرخان المعاصران ابن شداد والعماد
الأصفهانى ، واستهل صلاح الدين الاجتماع بقوله « بسم الله
والحمد لله والصلاة على رسول الله ،اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا ،
قد نزل فى بلدنا ، وقد وطئ أرض الإسلام . وأنتم تعلمون أن
هذه عساكرنا ، ليست وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل
وهو واصل ؛ والرأى عند مناجزة العدو قبل أن يفتح البحر ،
فليخبرنا كل منكم بما عنده [٢] » وكذا انقسم الأعضاء إلى
مؤيدين ومعارضين ، فأيد الأولون السلطان فى استمرار القتال
قبل أن يجمع العدو شمله ويسعفه البحر ، ونادى المعارضون
بتأخير العسكر إلى الخروبة حتى يستجم ، وبعد الراحة يصلهم الملك
العادل ويشاركهم فى الرأى . وبعد مشاورة ومناظرة تغلب
المعارضون ونزل السلطان عند رأيهم ، واستهجن العماد موقفهم ،
وأصرها السلطان فى نفسه ، وأصابته حمى أو « التياث مزاجى . »

(١) Lane Poole : Saladin P. 241
(٢) ابن شداد ص ٩٧ — Michaud opcit. V. II P. 101

على قول إبن شداد . [1] وكان الأمر كما قال السلطان صلاح
الدين فخاب ، إذ ضاعت عكا فى النهاية بعد حصار عامين كاملين ،
غير أن ضياع عكا سنة ١١٩١ بعد طول ملازمة الأمراء للقتال
زعزع نفوسهم وقلل من إحترامهم للسلطان ، وزاد فى معارضتهم
له قولا وفعلا ، بدليل ما حدث فى إجتماع الثلاثاء ١٠ سبتمبر
سنة ١١٩١ من تغلب رأى القائلين بتخريب مدينة عسقلان ،
لأن الدفاع عنها يتطلب حامية كبيرة وجهاداً عنيفاً . واعترض
صلاح الدين على هذا الرأى إعتراضاً شديداً ، وطلب من بعض
أمرائه الدخول إلى عسقلان للدفاع عنها ، فامتنعوا خوفاً من أن
يمثل العدو بهم كما مثل بحامية عكا قائلين له « إذا أردت حفظها
فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار ، وإلا فما يدخلها منا
أحد ، لئلا يصيبنا ماأصاب أهل عكا . » ورضخ صلاح الدين كارهاً
لقرار مشوره بتخريب عسقلان ، وعبر عن آلامه لهذا القرار
بقوله للقاضى إبن شداد « والله لإن أفقد أولادى بأسرهم أحب
إلىّ من أن أهدم منها حجراً واحداً [2] . »

ولما علم صلاح الدين وهو بالقدس عزم الصليبيين على قصد بيت
المقدس ، عقد مشوره مساء الأربعاء أول يونيو سنة ١١٩٢

---

(١) ابن شداد ص ٩٧ .
(٢) ابن شداد ص ١٧٩ .

(٥٨٨ هـ) وحضر الأمراء جميعاً ، حتى أبو الهيجاء السمين الذى
وصل بمشقة عظيمة لمرضه ، وجلس على كرسى بجوار صلاح الدين ،
كما حضر سيف الدين المشطوب ، وكان واصلا توا من أسره فى عكا ،
وافتتح القاضى إبن شداد الجلسة بكلمة عن الجهاد وفضله وشرعيته ،
ثم وقف صلاح الدين ، وخطب فى أعضاء المجلس قائلا « إعلموا
أنكم جند الإسلام اليوم ومناعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين
وأموالهم وذراريهم معلقة فى ذممكم ، وأن هذا العدو ليس له من
المسلمين من يلقاه ، إلا أنتم ، والمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم
والسلام . » ترك هذا القول أثراً بليغاً فى نفوس الأمراء ، ووقف
أحدهم وهو الأمير المشطوب معبراً عن هذا الأثر بقوله « يامولانا نحن
مماليكك وعبيدك ، وأنت الذى أنعمت علينا وكبرتنا ، وليس لنا إلا
رقابنا وهى بين يديك . » [1] وأستحسن الآخرون قول
المشطوب وأيدوه فيما قال ، وانشرح قلب صلاح الدين وانفض
الاجتماع لاستعداد الأمراء لدفع الصليبيين عن القدس ، غير أنه حدث
مالم يكن فى حسبان صلاح الدين ، إذ تنكر بعض الأمراء للقرار
السابق الذكر ، وخشوا التجمع داخل بيت المقدس للدفاع عنها ،
فيجرى عليهم مثل ما جرى على أهل عكا ، واشترطوا لدخولهم
إياها أن يكون معهم صلاح الدين نفسه أو بعض أهله ، وإلا

---

(١) أبوشامه حـ ٢ ص ١٩٨ — Stevenson op. cit. P. 283

«فالاكراد لا يدينون للاتراك ،والاتراك لايدينون للاكراد.»[1]
فاغتم صلاح الدين لتلك الحركة العنصرية المزمنة فى صفوف أمرائه ، والتى تركت من الآثار السيئة داخل مشوره وخارجه ما مكن الصليبيين من إنتهاز الفرص والنيل من المسلمين .

والحق أن صلاح الدين شاور أصحابه فى هذه المواطن كلها وفى مواطن أخرى كثيرة،وقبل رأيهم عن رضا حينا وعن كره حينا آخر ،إيثاراً لرضائهم وحرصاً منه على احترام رأى الأغلبية ، فضلا عما للنظام الاقطاعى السائد فى عصره من أثر. ويتضح من دراسة مجلس الشورى فى عصر صلاح الدين كذلك،أن أعضاءه جميعهم كانوا من أهله وأقاربه ، ومن أمراء الاكراد والاتراك زملاء مع عمه شيركوه ، دون أن يوجد بينهم مصرى واحد ، حتى الأعضاء المدنيون منهم كالقاضى الفاضل،والعماد الكاتب،والقاضى إبن شداد ، فهم جميعاً من غير مصر ؛ وغنى عن البيان أن هذه هى سنه الفاتح ، يعتمد على بنى جلدته . والواقع أن صلاح الدين حرم المصريين من التجنيد فى الجيش الدائم ، ولم يمكنهم من الجهاد بالقدر الذى سمح به لغيرهم حتى التطوع لم يكن ميسوراً لهم كل اليسر ، لأن بلادهم فى حكم الفاتح أخذت بالسيف ، ومن حقه أن يقطعها لأهله وأمرائه ، ورضى المصريون بالفلاحة والالتصاق بالأرض ،على قول

(١) أبوشامه حـ ٢ ص ١٩٩ .

المقريزى .[1] وصلاح الدين لم يكن حراً فى إبعاد المصريين عن التجنيد ، لأن العصر الذى عاش فيه لا يعرف جيشاً قومياً ثابتاً أو تدريباً عسكرياً لأبناء الأمة على حمل السلاح ، ولو أن صلاح الدين قرر تجنيد المصريين لوفر على نفسه الجهد المميت ، الذى بذله فى تأليف جيوش مختلفة الأجناس والعادات والأساليب، من شامية وفراتية وجزرية وموصلية وديار بكرية .[2] ولم يكن من السهل ولا من الهين عليه إمساك هذه الجيوش فى مواقفها أمام القلاع والحصون أعواما متصلة، على غير مألوفها من الحرب والغنيمة ، ثم العودة مسرعاً إلى أهلها . وهى ظاهرة حربية واضحة فى جيوش الشرق عموماً ،حيث يكون الضباط والجنود متزوجون فلا يحتملون مرارة الاغتراب الطويل عن زوجاتهم وأطفالهم ،فيسرعون بالعودة اليهم باسلابهم وغنائمهم .[3]

أما نظام العسكر الإسلامى فى المعارك على عهد صلاح الدين ، فلم يختلف ـفيما يبدوـ عما سبقه أولحقة من العهود الإسلامية على العموم ، إذ تألف الجيش من عسكر المقدمة ،ثم عسكر آخر من ناحية اليمين عن موقف السلطان وعلى سمته ويسمى الميمنة ، ثم عسكر آخرمن ناحية الشمال ويسمى الميسرة ، ثم عسكر آخر

(١) الخطط المقريزيه حـ١ ص ١٣٨ .
(٢) العماد ص ٨ .
(٣) Lane Pool : Saladin P.P. 238 — 277

من وراء العسكر يسمى الساقة أو الخلف ، ويقف السلطان وأصحابه
فى الوسط بين هذه الأربع ، ويسمى موقفه القلب ، والتعبية أن
يقف كل عسكر فى موضعه[١] . وقد عرف كل أمير منزلته ،
بحيث تمتد الميمنة فى مقابلة ميسرة العدو ، والميسرة فى مقابلة ميمنة
العدو . وتنقسم الميمنة إلى جناحين ، اليد اليمنى للجناح الأيمن
واليد اليسرى للجناح الأيمن ، وكذا الميسرة تنقسم إلى الذراع
الأيمن للجناح الأيسر والذراع الأيسر للجناح الأيسر ، وبالمثل
القلب فيقال ، الذراع الأيمن للقلب والذراع الأيسر للقلب .

وتتكون المؤخرة من المطبخ والخزينة وأدوات القتال والدواليب
والفائض من الخيول والمال والأسرى والجرحى[٢] . وتنطبق
هذه الصورة النظرية على ما جاء فى الروايات المعاصرة عن التعبية
الصلاحية فى إحدى المعارك الكبرى بعكا التى وقعت يوم الأربعاء
٤ اكتوبر سنة ١١٨٩ (٢١ شعبان ٥٨٥) ، حيث أنزل صلاح
الدين فى ميمنة القلب ولده الأفضل بعسكره ، ثم ولده الظافر
بعسكره ، ثم عسكر المواصلة وعليهم ظهير الدين بن البلتكرى ،
ثم عسكر ديار بكر والجزيرة وعليهم قطب الدين صاحب حصن

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٧ وراجع صورة المعسكر الاسلامى فى الخريطه .

(٢) راجع Sabahuddin : Islamic culture V. 20 N. 2 — P.P. 155 — 158.

كيفا ، ثم حسام الدين عمر ابن لاجين صاحب نابلس ، ثم الأمير
قايماز النجمى ، ثم المظفر تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين
عند ذراع الميمنة ، وموقفه قبالة طرف الميسرة الصليبية ، وأما
الميسرة الإسلامية فتتألف من الأمير سيف الدين على ابن أحمد
المشطوب ، والأمير مجلى على رأس الأكراد من المهرانية والهكارية ،
ومجاهد الدين برنقش مقدم عسكر سنجار ، وجماعة من المماليك
ثم مظفر الدين ابن زين الدين بعسكره ، ثم كبار المماليك الأسدية
سيف الدين ياز كوج ورسلان بغا فى جندهم الذى يضرب به المثل ،
ثم العرب عند ذراع الميسرة وموقفهم قبالة ميمنه الصليبيين عند
نهر أنامن . أما القلب فوقف فيه صلاح الدين فى مخيم كبير وإلى
جانبه الفقيه عيسى الهكارى[١] .

وعين صلاح الدين قائداً مستقلا لكل تشكيلة من هذه
التشكيلات يسمى المقدم ، فيقال مقدم المقدمة ومقدم الميمنة ومقدم
الميسرة ومقدم الساقه . وكان القلب عادة تحت إمرة صلاح الدين
نفسه ، ويحاط بالأطباء والفلكيين والعلماء والأخصاء ورماة
المزاريق المهرة ، ويقف أمامه حاملوا العلم والفرقة الموسيقية وتشمل
الطبول والدفوف والنفير الخ[٢] ... ويقف بين يدى السلطان

(١) أبوشامه ح ٢ ص ١٤٤ — ابن شداد ص ٩٧ .

(٢) ابن شداد ص ١٩ — Sabahuddin: op. cit. V. 20 No. 2 P. 155.

جماعة من الخلع والأموال والخيول ، وغير ذلك من الهبات التى يوزعها على المستحقين للصلات . ووقفة صلاح الدين فى صدر القلب تقوى نفوس أصحاب الصفوف فى الجيش ، ومن يتلو بهم فى الصفوف المتقاطرة . يخاطبهم بنفسه ويشجعهم ، ويعدهم الحسنى من الله فى الآخرة ، ويمنيهم بالخلع السنية .

وعند بدء المعركة يكتفى بمنازلة العدو بأحد الجناحين ، على حين يظل الجناح الآخر فى مكانه لا يتحرك إلا إذا أصاب الأول الوهن أو أعياه الضعف ، ووظيفة القلب أن يمد جناحيه بالأطلاب إذا أصابهما ضعف . ولا يقتصر موقف السلطان فى المعركة على القلب ، بل يطوف على الأطلاب جميعاً ، يحثهم بنفسه على القتال والجهاد ، ويدعوهم إلى النزال ويحببهم فى الاستشهاد منادياً فيهم « يا للأسلام » ، فإذا ما اشتد القتال طاف بين الصفوف من الميمنة إلى الميسرة ، ويأمر الأطلاب بالتقدم والوقوف فى مواضع يراها . وعليه أن يطوف كذلك حول العدو فى كل يوم مرة أو مرتين ، إذا كان قريباً منهم وهو يسير ساعة ، ثم ينزل يستريح ويتظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس ، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفاً[١] . ويمشى

(١) ابن واصل ص ٤٢٦ -- ابن شداد ص ١٤ ، ١٩ -- أبو شامه ج ٢ ص ١٤٤ .

صلاح الدين أحياناً وبين يديه جماعة القراء والصلحاء ، وهم يتلون على العسكر كتاب الله تعالى ، ويحذرونهم من الفرار ويذكرونهم ما أعد الله تعالى للشهداء فى الجنة ، مستشهدين بالآيات الواردة فى سور الجهاد والصف والأحزاب ، ومعظمها ضد الفرار الذى هو إحدى الكبائر الخمسة ، وما دام عدد المسلمين مثل نصف عدد المشركين لا يحل لهم الفرار منهم ، ولا يستحب لرجل من المسلمين به قوة ، أن يفر من رجلين من المشركين[١] .

ولم يقف الأمر عند حد قراءة القرآن ورواية الحديث بين الصفوف وأثناء القتال ، وإنما اتخذ المسلمون التهليل والتكبير لتقوية الروح المعنوية عند المجاهدين ، ويشترط عدم الإسراف فى التكبير لأن كثرته عند مقاتلة العدو يعتبر فشلا[٢] . ومن طريف ما ذكر عن التكبير أن صلاح الدين حاصر قلعة برزيه سنة ١١٨٨ (٥٨٤ هـ) وتمكن بعض المسلمين من التسلل إلى أحد جوانب الحصن ، على حين صعد الصليبيون إلى قمة الحصن ومعهم جماعة من الأسرى المسلمين فى القيود ، فلما سمع الأسرى تكبير إخوانهم خارج القبة كبروا ، فدهش الصليبيون وظنوا أن المسلمين خالطوهم ، فولوا هاربين ، وأسرهم المسلمون واستباحوهم[٢] .

(١) كتاب فهرسة الكتب ص ٣٤ ، ٦٦ ومخطوط كشف الكروب ص ٥ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٣١٤ .

وكذا بات التكبير عاملا من عوامل تضليل الصليبيين وهزيمتهم .

أما الصلاة فإذا جاء وقتها ضج العسكر بصوت الآذان ، وأمَّ إمام كل خيمة المصلين ، وأحياناً كانت الجيوش تصلى نوبة بعد نوبة مثل صلوة الخوف[١]. ويبدو أن صلاة النوبة تحدث عادة إذا ما حل وقت الفرض والمعركة دائرة الرحى ، فيؤدى الجند الفرض نوبة بعد أخرى ، حتى لا تخلو الصفوف من المقاتلة أثناء الصلاة . وشوهد صلاح الدين فى خيمة صغيرة على بساط لطيف ، وتحته سجادة وبين يديه مصحف ، وهو مستقبل القبلة وإلى جانبه زرديته وسيفه وقوسه ، وتركاشه معلق فى عامود الخيمة[٢] .

ويشرف على الشئون الدينية فى الجيش قاضى العسكر ، ومعه كاتب يكتب للناس ، وجماعة من العدول يختارهم من الجند للشهادة ، وجرى العرف أن تكون خيمة قاضى العسكر عن يمين الأعلام السلطانية ، وأن يكون له موضعا يمشى فيه ليقضى فيه وهو سائر ، وأن يكون متولى قضاء العسكر مستعدا للاحكام التى يكثر فصلها فى العسكر ، كالغنائم والشركة والقسمة والمبيعات والرد بالعيب ، وأن يسرع فى الفصل بين الخصوم لئلا يكون فى ذلك

(١) كتاب فهرسة الكتب ص ٦٦ — مرآة الزمان ص ٢١١

(٢) مرآة الزمان ص ٢١١ .

تشاغل عن مواقع الحرب ومقدماته ، وتولى وظيفة قضاء العسكر على عهد السلطان صلاح الدين بهاء الدين بن شداد الذى لازم صلاح الدين فى حله وترحاله .

وجرت العادة أن يسبق المعركة حركة استكشاف ، وهو اليزك فى مصطلح الدولة الأيوبية . واليزك لفظ فارسى معناه الطلائع[١]، وتستعمل للفرقة والمقدمة ، وتطلق جميعها على الفرقة التى تكلف بحراسة الطرق أو بعملية الكشف ، ويمرن أفرادها تمريناً خاصا على استجلاب الأخبار من معسكر العدو[٢]. وشبيه بها الاستطلاع فى الحرب الحديثة . وسجل التاريخ الحربى لليزك الصلاحى نجاحا باهرا فى أداء مهمته الإخبارية والإستطلاعية فى أكثر من مناسبة ، ولا سيما أثناء حصار الصليبيين عكا (سنة ١١٨٩ — ١١٩١) ، وأثناء عزمهم على مهاجمة بيت المقدس بعد استقرار الجيوش الأيوبية المصرية بها سنة ١١٩٢ ، إذ استطاع صلاح الدين أن يكيف نفسه لكل الاحتمالات العسكرية المتوقعة فى الدفاع عن بيت المقدس ، على ضوء التقارير التى أرسلها إليه الأمير جورديك رئيس اليزك[٣] . وقد يعهد إلى اليزك مهمة

(١) راجع : — السلوك ح ١ قسم ١ ص ١٠٥ .

(٢) السلوك ح ١ قسم ١ هامش ص ١٠٥ — :
Sabahuddin : op. cit. V. 20 N. 2 p. 155.

(٣) ابن واصل ص ٤٠٠ — Lanepoole : Saladin p. 341

مناوشة العدو بالنشاب لجذبه واستدراجه إلى معسكر المسلمين .
وإذا ما أصدر صلاح الدين أمرا فى خلال المعركة ينقله الطواشى
لجميع وحدات الجيش ، ومن عمل الطواشى كذلك ملاحظة كل
فرد فى مكانه وعقاب المخالف بالموت ، ويشاركه فى هذا العمل
الجاويش ، فضلا عن الصياح والمناداة فى العسكر نفخا فى البوق ،
إيذاناً ببدء المعركة أو لجمع العسكر حول خيمة السلطان لغرض
معين(١) .

أما المعركة نفسها فجرت العادة أن تبدأ فى الصباح الباكر
وتنتهى عند المساء ، وإذا كان الجيشان وجها لوجه ، ولا بد من
الحرب فإن المعركة تدور ليلا . وفضل بعضهم ذلك ليتيسر للمحاربين
الهرب تحت جنح الظلام فى حالة التقهقر والدفاع . وقبل بداية
المعركة تعطى الأوامر بدق الطبول حربياً ثم ينفخ فى البوق ،
ويكبر المكبرون علامة على الاستعداد لمواجهة الأعداء ، وعند
الضربة الثانية للطبول يأخذ الجند أهبتهم بخيولهم وأسلحتهم
وينظمون أنفسهم فى استعراض عام للمعركة ، ويمتطون جيادهم
عند الضربة الثالثة ، ثم ينتظرون بقية الأوامر الصادرة إليهم .
ويغلب على الصليبيين الانتصار حتى منتصف النهار ، وأحياناً

(1) Jslamic Culture: Sabahuddin : op.cit : V 20 No. 2
P, 63 - Vol 21 No 1 p 7. ابن شداد ص ١٣٢

يغيرون على خيام المسلمين للنهب والسلب ، فإذا عادوا فى المساء
محملين بالغنائم وجدوا خيامهم نهباً لعسكر المسلمين(١) . ويعبر عن
هذا الهجوم المفاجىء على مخيم العدو بالغارة الليلية ، وتحدث
غالباً فى الصباح الباكر ، وهى إحدى الخطط الحربية التى اتبعها
صلاح الدين وضايق بها الصليبيين ، وكان نصيبها النجاح الكبير
أغلب الأحيان ، خصوصا حين يخلو مخيم العدو من الحراس
فيتمكن المغيرون من الدخول خلسة ، وينشرون الرعب والخوف
فى المعسكر الصليبى . وأشار المؤرخون المعاصرون بالجرأة التى
اتبعها لصوص العرب فى هذا الصدد ، وأن صلاح الدين أختارهم
ممن اتصف بالخفة من العرب ، ورتب منهم وهو على حصار عكا
ثلثمائة لص ، يدخلون خيام العدو ، ويسرقون منهم أموالهم وخيولهم
بل ورجالهم أحياناً وهم نائمين ، فيوضع السكين أو الخنجر على
حلق الرجل منهم ، ثم يوقظ فيرى هذا العملاق العربى وقد وضع
الخنجر على نحره فيلوذ بالصمت ولا يجرؤ على الكلام ، فيحمل
وهو على هذا الوضع إلى أن يخرج عن المخيم ويؤخذ أسيراً .
وحدث أن تكلم جماعة منهم فنحروا ، وصار من أصابه الاسر
على هذا النحو لا يتكلم ، مفضلا الأسر على القتل(٢) .

(١) Michaud: op V. 2 P 102 Sabahuddin: op. cit.
V. 22 No. P. 7.

(٢) أبو شامة حـ ٢ ص ١٨٦ .

ولا ريب أن البدو العرب قد أبلوا بلاء حسنا فى المعارك العامة ، وحرب العصابات والغارات الليلية والكمائن ،فضلا عن جماعة الأدلاء منهم ، أصحاب الدراية باختراق الصحارى ومعرفة الدروب والمسالك المطروقه بها ، فاستخدمهم صلاح الدين فى مواضع كثيرة، واستعان بهم فى كشف الطرق والوديان ، غير أن بعضهم لم يكن مخلصاً الاخلاص كله لجيوش المسلمين ، فطعنوهم من الخلف وآذوهم فى خطوط تموينهم وطرق مواصلاتهم ، وآثروا العمل فى صفوف الصليبيين طمعاً فى المال والكسب ، إذ لولاهم ما استطاع الأمير الصليبى إرناط صاحب حصن الكرك أن يقوم بحملتيه البرية والبحرية لغزو مكة والمدينة (١) ، ولولاهم ما استطاع ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا أن يتعرف خبر قافلة التموين المصرية الذاهبة إلى بيت المقدس ، وأن يتعقبها فى صورة عربى ومعه أولئك العرب المفسدين ، وينزل بالقافلة المصرية واقعة شنعاء ، أسفرت عن خمسمائه أسير مسلم وثلاثة آلاف جمل (٢). فكانوا على المسلمين أشد من الصليبيين. ولا أدل على ذلك من أن صلاح الدين كتب مرة إلى نور الدين يخبره بما جرى من اولئك العربان ، ونقلهم الأخبار إلى الصليبيين

(١) ابن جبير ص ٥٩ — ابن منكلى : الأحكام المملوكية ص ٥٠ .
(٢) أبو شامه جـ ٢ ص ١٩٨ .

وميزهم بقوله « إنهم كانوا آفة على المسلمين ، ودليلا للكفار على الإسلام » ، فأمر نور الدين باقطاع مشايخهم وأمرائهم القطايع لئلا يتعرضوا لحجاج المسلمين (١) .

ومن أساليب صلاح الدين الحربية اتباع خطة الحرب الخاطفة ومباغتة الصليبيين ، والحاق النصر بآخر قبل أن يستجمع العدو قواه، وتبدو تلك الخطة الحربية واضحة حين اتجه إلى المدن الساحلية بعد فوزه بحطين سنة ١١٨٧ ، إذ هاجم عكا وصفوريه وقيساريه وغزة ونابلس وغيرها ، حتى إذا استعصت عليه صور فضّل تركها والعودة إلى الإستيلاء على بيت المقدس وما بقى من المدن الساحلية ، وهى كوكب والكرك والشوبك واللاذقية وبرزيه وجبله وبكاش وغيرها. فلما استولى صلاح الدين على بيت المقدس سنة ١١٨٨م. اشار عليه الأمير على أبو أحمد المعروف بالمشطوب بضرورة العودة إلى صور ، وأخذ المشطوب يستعجل صلاح الدين ويقول له الفرصة تدرك بالحث، فأبى السلطان نداءه ومعه أخوه العادل أبو بكر مستبصرا بارائه (٢) . ولما لم تسعف خطة الحرب الخاطفة صلاح الدين فى الاستيلاء على صور لمناعتها ، ابتكر أسلوبا تاكتيكيا

(١) العينى جـ ٢١ قسم ٣ ص ٥٠٥ ، ٥٣٨
(٢) العماد ص ٥٧ .

جديداً بأن قسم العسكر ثلاثة أقسام ، وقسم القتال عليها بحيث
يكون لكل منها وقت معلوم من النهار ، يقاتلون منه حتى يتصل
القتال على أهل صور فلا يستريحون ؛ وهذه هى طريقة التناوب
التى ابتدعها صلاح الدين ،غير أنها لم تؤد إلى الاستيلاء على صور
لسبب طوبغرافى ، وهو ضيق الموضع الذى قاتل منه المسلمون
المدينة ، فضلا عن تمرد بعض أمراء صلاح الدين ورغبتهم فى
الرحيل ورفع الحصار [١] . على أن اخفاق صلاح الدين فى صور
لم يكن معناه فساد خطة التناوب ، فقد وصف ابن الأثير جيوش
المسلمين ، وهى تقاتل حصن برزيه على طريقة التناوب بعد أن
لاحظ صلاح الدين مناعة الحصن ، وأن محاصرته تشغل باله زمنا
طويلا وتجتذب عددا كبيرا من قواته . فقسم العسكر ثلاثة
أقسام، وتقدم عماد الدين صاحب سنجار وصاحب النوبة الأولى،
فقاتل الحصن قتالا شديداً حتى ضرس أصحابه من القتال ، واستوفوا
نوبتهم فتراجع بهم ليستريحوا . وتسلم صلاح الدين بنفسه النوبة
الثانية ، ثم لحقت به النـــوبة الثالثة فامتزجت مع الثانية ،
واعقبتهما رجال النوبة الأولى بعد أن عادلهم نشاطهم . على حين
أن أهل الحصن ما زالوا يقاتلون يومهم من غير مناوبة جميعاً ،
فتقدموا بطلب الأمان فامنهم صلاح الدين، واتبع كذلك خطة النوب

(١) العماد ص ٦٩ .

على حصن كوكب نهاية سنة ١١٨٨ حتى سلم فى النهاية [٢]
واستعمل صلاح الدين سلاح الخديعة للإيقاع بالصليبيين
ما استطاع إلى ذلك سبيلا . من ذلك أنه حين علم سنة ١١٨٨
(٥٨٥) أن الصليبيين اعتادوا الخروج إلى جبل تبنين للاحتشاش
والاحتطاب [٣] فى حراسة خيل منهم ، رتب قاعدة كمين لهم يصلح
للقاء الجميع ، وأنفذ إلى عسكر تبنين بالخروج فى نفر يسير من
العربان ،فاذا تبعتهم الصليبيون ينهزمون أمامهم إلى جهة عينها لهم ،
وأرسل إلى عسكر عكا أن يكونوا على أهبة ، فإذا تحرك الصليبيون
فى نصرة أصحابهم هجم عسكر عكا على خيامهم . وبعد أن رسم
صلاح الدين الخطة على هذه الصورة رتب العسكر ثمانية أطلاب ،
واستخرج من كل طلب عشرين فارساً ،وأمرهم أن يناوشوا أمام
العدو ويتظاهروا بالهزيمة بين أيديهم حتى يصلوا إلى الكمين ،
ففعلوا ذلك ونشبت الحرب بين الفريقين وكتب النصر
للمسلمين [١] . ومن نوادر الكمائن أن ريتشارد قلب الأسد خرج
يوماً للصيد والاحتطاب بعد معركة ارسوف (سبتمبر سنة ١١٩١)،
ونصب صلاح الدين له كميناً فى اكتوبر من تلك السنة

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٢٩٩ .

(٢) الاحتطاب : من احتطب رَعَى دِقّ الحطب ، وبعير حطاب يرعاه . قاموس المحيط ج ١ ص ٥٦ .

(٣) أبو شامه ج ٢ ص ١٤١ — ابن شداد ص٤٢ .

(رمضان ٥٨٧) وكاد يقع ريتشارد فيه ويؤسر لولا أن فاداه أحد
خواصه الفرنسيين ، حين أظهر حسن لباسه واستغاث بالعربية
قائلا « أننى الملك انقذوا حياتى » . فانخدع المسلمون وأسروه على
أنه الملك ريتشارد ،وقادوه إلى صلاح الدين فرحله إلى معتقل دمشق
وظل به حتى افتداه ريتشارد باطلاق عشرة أسرى من أمراء
المسلمين[١] . ويبدو أن الكمائن المصرية كبدت ريتشارد خسائر
فادحة ، إذ أرسل مرة إلى الملك العادل يعتبه على الكمين الذى
رتب فى الرملة ، ويطلب الاجتماع به للتفاهم على شروط عقد الصلح
مع السلطان صلاح الدين . والمعروف أن طريقة الكمين سلجوقيه
الأصل ، وأن صلاح الدين نقلها عنهم وأكثر منها فى حروبه
على نطاق واسع ، وساعده على ذلك البيئة الجغرافية إذ جمعت
بين الأودية والشعاب والجبال والهضاب ، وكلها ستائر طبيعية
صالحة باختفاء الكمائن خلفها . وبلغ من اهتمام صلاح الدين
بقتال الكمين أنه كان يركب وبصحبته القاضى ابن شداد قاصداً
جهة الكمين متشوقا أخباره ونتائجه . ولا عبرة لوصف الكمين
بأنه تاكتيك ينطوى على الغدر والخيانة والفرار والتظاهر بالهزيمة،
وهى صفات تتنافى مع شجاعة الصليبيين وفروسيتهم على قول
مؤرخيهم[٢] .

---

(١) أبو شامه ج ٢ص١٩٢ Michaud op : cit : V. 2 p, 38

(٢) راجع : بكتوت الرماح : السوال والأمنية ص ١٩١ :
Michaud V. Iv p. 166.

ومن الشروط الواجب توافرها فى الفارس المنتخب للكمين
أن يكون مقدماً جريا للإهوال ، راكباً لا شغب له ولاسعال به ،
ولا كثرة عطاس ، يجاوز نفسه ويعلوها ، ولا ضرير بصدره ،
ولا حشرجة بحلقه ، ولا بحوبحة بصوته ، متيقظاً ، ليس بنوم
ولا لطول باليوم ، ولا عند الصهر بخوار ، ولا البليد قلباً ،
ولا بالكايل طرقا . سموعا لوقع الجرس وإن كان خفيفاً ، نهوضاً
عند وقت المناداه والشك ، لا كسل به ولا لعاعه ولا فشل. شديد
المنادعة فى تمكن وروية واستعداد ،ويختار له من السلاح الخفيف
المعمول النافذ ، ليس بالمغلول ، الشديد الوقع والنكاية[١] .
وتتوفر تلك الشروط غالباً فى العرب دون غيرهم ، ولذا أكثرهم
صلاح الدين للعدو لخفتهم على غيرهم ، وأمنه عليهم وسرعة اندفاعهم
أمام العدو ، وتظاهرهم بالإنهزام والضعف . ويشترط فى دواب
الكمين قلة الشغب ، لاصهيل لها ولا حمحمة ، ولا غبير ولا نفار،
صابره لا تضجر ، حسنة الاخلاق لا تصول ، ساكنة لاسعال
بها ولاخراط ،ولا منع الأسراج والألجام ،ولا رغاوة بها[٢] .

أما عن تخطيط المعسكر الإسلامى فأول ما يفعل ضروب

---

(١) بكتوت الرماح : السؤال والأمنية ص ١٩ — كتاب فهرسة الكتب ص ٥٨.

(٢) بكتوت الرماح : السؤال والأمنية ص ٩١ .

فسطاط السلطان وهى مركز لخيم الناس ، ثم بيوت أمراء الجيش وموضع أهلهم ، والخصيان ومطابخهم وشرابهم ، ورباط خيل النوبة ، ويشترط عند ضرب المعسكر توافر المياه فى أيدى المسلمين، والأزواد والكلأ على تل أو قرية أو فى أرض سهلة . ولم يكن من المستحب الإقتراب من الأنهر ليلا ، لأنها تعرض الصورة للعدو ، كما أن الصحراء ليلا تحدث قلقلة ، وهذا يفسر تسابق كل من الجانبين الإسلامى والصليبى إلى احتلال أماكن المياه أو النزول على مقربة منها والسيطرة على الوديان من تبة عالية ، وبلغ هذا التسابق أشده فى المعارك الدائرة حول مدينة عكا (١١٨٩ـ١١٩١)، تلك المدينة التى شهدت قيام معسكرين خارج أسوارها ، أحدهما إسلامى شرقى ، والآخر مسيحى غربى ، يسير فيهما النشاط التجارى والصناعى جنباً إلى جنب مع النشاط الحربى وقعقعة السلاح ، ووصف لنا الرحالة عبد اللطيف ابن يوسف البغدادى معسكر صلاح الدين وصفاً ممتعاً ، كما شهده سنة ١١٩١ (٥٨٧) ونص عبارته « كان السوق الذى فى عسكر السلطان على عكا عظيما ، ذا مساحة فسيحة . فيه مائة وأربعون دكان بيطار . وعددت عند طباخ واحد ثمانية وعشرين قدراً ، كل قدر تسع رأس غنم . وكنت أحفظ عدد الدكاكين لأنها كانت محفوظة عند شحنة السوق وأظنها سبعة آلاف دكان . وليست مثل دكاكين المدينة ، بل دكان

واحد مثل مائة دكان ، لأن الحوائج فى الأعدال والجوالقات . ويقال إن العسكر أنتنت منزلتهم لطول المقام . فلما ارتحلوا غير بعيد وَزَنْ سمَّان أجرة نقل متاعه سبعين ديناراً . وأما سوق البز[1] العتيق والجديد فشئ يبهر العقل ، وكان فى المعسكر أكثر من ألف حمام . وكان أكثر ما يتولاه المغاربة . يجتمع منهم إثنان أو ثلاثة ويحفرون ذراعين فيطلع الماء ، ويأخذون الطين فيعملون منه حوضاً وحائطاً ، ويسترونه بحطب وحصير ويقطعون حطباً من البساتين التى حوله ، ويحمون الماء فى قدور، وصار حماماً يغسل الرجل رأسه بدرهم وأكثر[2] . ولو عرف صلاح الدين دور السينما والكهرباء ومياه الشرب وغيرها من مستلزمات المدنية الحديثة لأنشأ لها دوراً داخل معسكره ، كما هو الشأن فى معسكرات الجيوش الحديثة اليوم .

وأحب صلاح الدين الحرب فى فصل الصيف ، لأنه أشد فصول السنة قيظاً وأعظمها فتكا بالعدو ، كما كان حالهم يوم حطين (يوليو ١١٨٧) ، ولأن الشتاء موسم إعداد الأرض للزراعات الشتوية ، وعلى العساكر أن ترحل إلى بلادها لاستغلال أراضيها ، فعند ما

---

(١) البز : الثياب أو متاع البيت من الثياب ونحوها ، وبائعة البزاز وحرفته البزازة — قاموس المحيط ص ٢ ص ١٦٤ .

(٢) السلوك ج ١ قسم ١ ص ٩٤ — نقلا عن كتاب البغدادى وهو الإفادة والاعتبار ص ٨ .

يحل الشتاء يعطيهم السلطان الدستور للعود إلى بلادها ، ليأخذوا نصيباً من الراحة وتجم خيولهم ، حتى إذا حل الربيع كتب صلاح الدين إلى البلاد بعودة العساكر الإسلامية فى جموع كبيرة من الأجناد والأعيان ، وحشود من العرب والتركمان ، فيستقبلهم السلطان وكبار حاشيته ، وينزل كل عسكر فى منزلته . ويكشف لنا كتاب صلاح الدين إلى عماد الدين صاحب سنجار سنة ١١٨٩ (٥٨٥) حرصه على تجمع عسكر الإسلام فى الربيع استمداداً للحرب فى الصيف ، حين جهز هذا الأمير عسكره للمجىء زمن الشتاء ، فكتب إليه صلاح الدين قائلا « إن الحاجة إليه فى الربيع أدعى ، ومصلحة الإسلام فى ذلك الأوان أولى أن ترعى » (١) .

وأكد العماد وهو المؤرخ الحربى المعاصر لجيش صلاح الدين أن جميع عملياته الحربية وفتوحاته تمت فى فصل الصيف بقوله « وكل ما تم من النصر يوم حطين وفتح القدس وتسلم بلاد الساحل إنما تسنى بشهر سيفه فى فصل الصيف وشهوره » (٢) .

والذى لاشك فيه أن أمطار الشتاء وأوحاله عاقت حركات الفريقين المتحاربين ، إذ تشير الرواية التاريخية فى حديثها عن فتح حصن كوكب سنة ١١٨٨ إلى الأحوال التى لاقاها المسلمون من شدة الرياح وتكاثر السيول ولزوجة الأوحال ، فأدى ذلك كله

(١) العماد ص ١٧٢ ، ١٧٨ ، ٢٣٧

(٢) أبو شامة ح ٢ ص ١٢١ .

إلى وقوع الخيام وقلع الأوتاد وانعدام الأنوار وفقدماء الشرب، حتى أن السلطان بنى ستاراً من الحجارة لخيمته (١) .

وحدث مثل تلك الأهوال الطبيعية لريتشارد قلب الأسد حين عقد العزم على السير إلى المدينة المقدسة فى ديسمبر ١١٩١ ، إذا لم يكد يقطع ثمانية أميال ويصبح على أبواب المدينة حتى هطلت الأمطار الغزيرة ، فأبادت دواب حمله ببردها القارس وأقلعت الرياح العاصفة خيامه ، وصدأت أسلحة الجند وتمزقت ثيابهم وعفن خبزهم (٢) . وليس معنى ذلك أن العمليات الحربية وقفت فى فصل الشتاء وخلت ميادين القتال من المحاربين ، فالمتواتر فى كتب التاريخ أن صلاح الدين رابط بخواصه وجنود الحلقة المنصورة أمام عسكر الصليبيين زمن الشتاء ، واستوضح صلاح الدين هذا المعنى لسفير ريتشارد عند ما وفد عليه فى طلب الصلح بقوله : « إن العسكر الذى عندى فى الشتاء ، غير العسكر الذى عندى فى الصيف » (٣) .

وأحب صلاح الدين كذلك شهر رمضان لمحاربة الصليبيين ، إذ يقول أبو شامه تحت أحداث سنة ٥٨٤ هـ . (١١٨٨) أن

(١) أبو شامه ج ٢ ص ١٣٥

(٢) Lane pool Saladin 234

(٣) ابن شداد ص ٢٢٨

صلاح الدين أتى دمشق دخل فأقام بها حتى شهر رمضان ، وما كان يرى تبطيل وقفه من الجهاد ، خصوصاً وقد بقى له من القلاع القريبة من حوران التى يخاف عليها من جانبيها ، صفد وكوكب ، فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين فى الصوم ، ولم يلتفت إلى مفارقة الأهل والوطن والولد فى هذا الشهر ، الذى يسافر الإنسان أين كان ليجتمع فيه بأهله[1] ، وأخرج صلاح الدين يوم ٨ رمضان ٥٨٧ هـ (١١٩١) الكمين على ريتشارد ملك انجلترا حين خرج فى فوارسه للاحتطاب . وفى ١٤ رمضان سنة ٥٨٧ وقعت واقعة أرسوف بين المسلمين والصليبيين .

واعتبر صلاح الدين يوم الجمعة من أسعد أيام الأسبوع عنده ، إذ كثيراً ما قصد لقاء الصليبيين فى يوم الجمعة وقت الصلاة تبركاً بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر ، وبدأ معركة حطين يوم الجمعة ٢٦ يونيو سنة ١١٨٧ (١٣ ربيع الآخرة سنة ٥٨٣) ، ودخل صلاح الدين عكا يوم الجمعة غرة جمادى الأولى سنة ٥٨٣ (٩ يوليو سنة ١١٨٧) ، وفى يوم الجمعة ٢٠ رجب ٥٨٣ انتقل إلى الجانب الشمالى لمدينة بيت القدس ، وسد المسالك على الصليبيين ونصب المجانيق ، وفى يوم الجمعة ٢٧ رجب أى ليلة المعراج من عام ٥٨٣ تسلم المدينة (٢ أكتوبر سنة ١١٨٧) ، وضاق الوقت عن إقامة فرض صلاة الجمعة بالمدينة ، فلما كانت الجمعة التالية ٩ أكتوبر أقام

(١) أبو شامه ج ٢ ص ١٣٣ ، ١٣٥

المسلمون صلاة الشكر فى الجامع الأقصى ، وخطبهم وأمهم القاضى محيي الدين محمد بن زكى الدين[1] . على أن فتح الصليبيين للقدس ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ وقع يوم جمعة ١٥ يوليو (٢٢ شعبان ٤٩٢) ، وفتح المسلمين له وقع يوم جمعة كذلك . ومن عجيب الاتفاق أيضاً أن يفتح صلاح الدين ست قلاع ومدن فى ست جمع متتالية ، مع أنها فى أيدى أشجع الصليبيين وأشدهم عداوة للمسلمين ، وجميعها من أعمال انطاكيه ، وها هى حسب ترتيبها الزمنى[2] .

١ — جبله : الجمعة ١٨ جمادى الأولى سنة ٥٨٤ الموافق ١٥ يوليو ١١٨٨ .

٢ — اللاذقية : الجمعة ٢٥ جمادى الأولى سنة ٥٨٤ الموافق ٢٢ يوليو ١١٨٨ .

٣ — صهيون : الجمعة ٢ جمادى الآخرة سنة ٥٨٤ الموافق ٢٩ يوليو ١١٨٨ .

٤ — بكاش : الجمعة ٩ جمادى الآخرة سنة ٥٨٤ الموافق ٥ أغسطس سنة ٨٨١١ .

(١) مرآة الزمان ص ٢٥٢ Stevenson P. 253

(٢) ابن الاثير ج ١٢ ص ٧ — ابن واصل ص ٣٢٣

Runciman: op.cit Vol. II p.470 Lane poole: Saladin p.246.

٥ — الشغر : الجمعة ١٦ جمادى الآخرة سنة ٥٨٤ الموافق ١٢ أغسطس سنة ١١٨٨ .

٦ — سرمانية : الجمعة ٢٣ جمادى الآخرة سنة ٥٨٤ الموافق ١٩ أغسطس سنة ١١٨٨ .

ورغم هذه التوفيقات الحربية الصلاحية التى وقعت فى يوم الجمعة ، فإن القلقشندى يعتبر القتال والحرب من خصائص يوم الثلاثاء ، إذ فيه قتل قابيل أخاه هابيل . أما يوم الجمعة عنده فيوم خلوه ونكاح ، وأن الأنبياء عليهم السلام كانت تنكح وتخطب يوم الجمعة[1] .

(١) القلقشندى ج ٢ ص ٣٥٧ .

الفصل الثالث

الشئون الإدارية فى حروب صلاح الدين

الأسرى — الداوية والاسبتارية — معتقلات الأسرى — عرض الأسرى فى شوارع المدن الإسلامية الكبرى — ديوان الأسرى — فكاكهم — بحث حالتهم فى المعتقلين الإسلامى والصليبي — مخالفات ريتشارد قلب الأسد لنظام الأسرى — القتلى والجرحى — إحصاء الجيوش — الخدمات الطبية والمستشفيات العسكرية — الغنائم والأسلاب — الناحية الاقتصادية وتموين الجيش — الحصار الاقتصادى وأثره على الصليبيين — المخابرات العسكرية والبريد الحربى — التربية الرياضية والاجتماعية فى العسكر الإسلامى .

تتطلب معرفة أحوال جيش مصر على عهد صلاح الدين معرفة شئونه الإدارية والتموينية والفنية الحربية ،فضلا عن معرفة شئون معاملة الأسرى والقتلى والجرحى إلى غير ذلك من الأمور التى لم تسبق الإشارة إليها فى الفصلين السابقين . وعلى المؤرخ أن يضع فى حسابه من البداية أنه يؤرخ لعصر يجهل اتفاقية دولية كاتفاقية جنيف مثلا الخاصة بمعاملة الأسرى ، ويجهل كذلك الجمعيات الدولية كالهلال الأحمر والصليب الأحمر والصحة الدولية

التى تشرف على منكوبى الحروب، من أسرى وجرحى ومرضى ولاجئين . وإنما ترك العصر والعرف مصير هؤلاء وأولئك جميعاً تحت رحمة الغزاة المنتصرين ، يتصرفون فيهم قتلاً واسترقاقاً ، وبيعاً وشراء ، كيفما شاءوا وآنى شاءوا . والذى لا شك فيه أن صلاح الدين خرج عن هذا المألوف الشائع بين عصره وقومه ، طواعية لقوانين القرآن الكريم والسنة الشريفة، إذ يروى التاريخ عن واقعة حطين سنة ١١٨٧م أن عسكره بعد انتهاء المعركة جمع الأسرى الصليبيين وقيدهم بأطناب الخيم ، ولوفرة عددهم وضع فى حبل واحد ثلاثون وأربعون يقودهم فارس واحد ، ووقف جندى واحد لحراسة مائة ومائتين من الأسرى فى مكان واحد لتعذر الحصول على الحبال الكافية . وفتح المسلمون بعد حطين الناصرة وصفورية وأسروا كثيراً من أهلها ، ثم وضعوا قيود الحديد فى أرجلهم والأصفاد فى أعناقهم وأيديهم ، وسيق هؤلاء وأولئك إلى حيث يجلس السلطان صلاح الدين وسط خيمته يستعرض جميع الأسرى ، ليحاورهم ويطعمهم ويرويهم وينزل السكينة فى قلوبهم ويكسو من فى حاجة منهم إلى الكسوة[1] .
وأحس صلاح الدين مرة بثقل البرد على مقدم كبير لهم ، فألبسه

(١) ابو شامة ح ٢ ص ٧٨ — العماد ص ٢١ ؛ ٢٥ — ابن شداد ص ٦٣ ، ١٣٦ .

فروته الخاصة وأمر لكل واحد من الباقين بفروة جرخية، كما أمر لمقدميهم بخيمة تُضرب قريباً من خيمته حتى يتم ترحيلهم إلى المعتقلات ، وقبل ترحيلهم إليها يأذن لهم صلاح الدين فى مراسلة ذويهم ، ليحضروا لهم من عسكرهم ما يحتاجون إليه من الثياب وغيرها . أو يسيروا غلمانهم لإحضار ما يريدون إحضاره ولإخبار ذويهم بحالهم[1] . سأل صلاح الدين — عن طريق ترجمانه — أحد الذين أسروا فى بيروت تلك السنة ، وكان شيخاً كبيراً طاعناً فى السن . « ما الذى حملك على المجئ وأنت فى هذا السن ؟ وما المسافة من هنا إلى بلادك ؟ » فقال الشيخ الأسير : « جئت للحج والزيارة، وبينى وبين بلادى عدة شهور » فرق له صلاح الدين ومنّ عليه وأطلقه وأعاده راكباً على فرس إلى عسكر الصليبيين[2] .
وذكر إرنول المؤرخ الصليبى المعاصر الذى شهد فتح بيت المقدس سنة ١١٨٧ أن آلافاً من المدنيين عجزوا عن دفع الفدية المقررة فأصبحوا أسرى ، وطلب الملك العادل من أخيه صلاح الدين ألفاً منهم يطلق سراحهم فدية لله ، فأجاب طلبه ورجا بطريق بيت المقدس والأمير الصليبى باليان مثل هذا العدد ، فأعطاها صلاح الدين ألفاً آخر أصبحوا أحراراً . وعندئذ قال صلاح الدين لمن حوله :

(١) أبو شامة ج ٢ ص ٨٠١ .
Lane-Poole : Saladin p. 231.
(٢) ابن شداد ص ١٤٢ .

« لقد قدم أخى صدقته ، وكذلك فعل البطريق والباليان ، ولم يبق إلا أنا » وأمر المنادين بالمناداة فى شوارع المدينة بمعافاة جميع العجزة الغير قادرين على الدفع وتحريرهم[1] . وفى اليوم الخامس من استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس مرَّ النصارى بمعسكره وإذا بامرأة جليلة المقام ورفيقاتها زوجات وبنات القتلى والأسرى أقبلن وعليهن ثياب رثة يبـكين له ، فاستفسر عن حاجاتهن فأجبنه،أن قدومهن لم يكن لطلب أرض أو عقار أو متاع ، بل لأنهن يردن آباءهن وأزواجهن وإخوتهن وأولادهن ، فأجاب صلاح الدين طلبهن وأحسن إليهن ، وأغدق الأموال على الأيتام والفقراء وخصص لهم مجمولا من ماله الخاص ، يقل ويكثر حسب مركز كل منهن الأدبى والاجتماعى[2].ومن أروع ما يذكر عن صلاح الدين فى معاملة الأسرى،أنه رفض رغبة أولاده الصغار فى قتل أحد الأسرى الصليبيين ، حتى لا يولد فى نفوسهم غريزة سفك الدماء وهم فى سن لا يفرقون فيه بين المسلم والـكافر . وحذرهم قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق[3] ، ودخل لصوصه ليلا خيام الصليبيين على حين غفلة من حراسها ، لسرقة المحاربين

(١) Lane poole: Saladin p.276.

(٢) حقائق الأخبار ج ٣ ص ٧٨ .

Lone-Pool : Saladin p 233 .

(٣) ابن شداد ص ١٤٤ -Stevenson p. 207

فعادوا بطفل رضيع له ثلاثة أشهر ، وجاءت أمه إلى صلاح الدين تقص قصتها ، ناحبة باكية،فدمعت عينه وطلب الرضيع من أعوانه فقيل إنه بيع بثمن بخس ، وما زالت مخابراته العسكرية تبحث عنه فى خيام المسلمين حتى جئ به فى قماطه ، ثم أمر صلاح الدين بالأم ، فحملت على فرس ومعها طفلها وأنفذ معها من أوصلها إلى معسكرها[1] .

واستخدم صلاح الدين — كما هو المتبع دائماً — أسرى الصليبيين فى بناء عمائره الحربية ، إذ وضع خمسين الف منهم تحت تصرف مهندسه الـكبير الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى الذى عهد إليه القيام ببناء سور القاهرة[2] . وشهد الرحالة بن جبير فى زيارته لمصر سنة ١١٨٣ أولئك الأسرى يقطعون الحجارة ويحملونها خارج الخندق إلى أسوار القاهرة الغليظة ، وينشرون الرخام ويحفرون الخندق المحدق بالسور ، ينقرونه بالمعاول نقراً فى الصخر ، ولا سبيل أن يمتهن فى ذلك البنيان أحد سواهم على قوله[3] . ولما تطلب الدفاع عن عكا سنة ١١٨٩ تعمير سورها الحرب حضر النقاب المجرب الأمير قراقوش المذكور مستصحبا معه هؤلاء الأسرى . ثم سقطت عكا فى يد الصليبيين سنة ١١٩١

(١) ابن شداد ص ٢٦ ، ١٤٥ .

(٢) الخطط المقريزية ج ٤ ص ٣٣٢ .

(٣) ابن جبير ص ٢٠ — العماد ص ٩١ .

رغم هذه التحصينات القرقوشية ،وأشيع عزمهم على الزحف إلى
بيت المقدس،فشرع صلاح الدين فى بناء سورها وحفر خندقها ،
ورتب فى العمارتين عدداً يربوا على الألفين من أسرى الصليبيين [1] .

وكيفما كانت سياسة صلاح الدين بوجه عام مع الأسرى
الصليبيين ، فإنه إتبع مع الداوية والاسبتارية منهم سياسة خاصة ،
قضت بقتل كل من ينتمى إليهما دون استرقاقه ، وسبب ذلك تنكر
فرسان هاتين الهيئتين للمبادىء الإنسانية التى كرسوا حياتهم
لخدمتها ، فخلعوا زيهم الدينى الأسود واتشحوا بالوشاح العسكرى
الأبيض والشارة الصليبية الحمراء ، وصاروا فى زمرة المحاربين ،
ينقضون العهود ويسفكون الدماء ، عرف عنهما التعصب الأعمى
وعدم الاقلاع عن معاداتهما للمسلمين ، فضلا عن صلفهما
وكبريائهما وعدم الخدمة فى الأسر،أومفاداة أنفسهم بالمال أوالبدل
بأسرى المسلمين . يشبههما فى كثير من صفاتهما وأفعالهما إلى
حد كبير هيئتا أرجونى واشترن الصهيونيتين فى التاريخ الحديث ،
لذا فضل صلاح الدين أن يطهر الأرض من نجسهما، فاحضر فى يوليو
سنه ١١٨٧ بعد انتصاره فى حطين كل أسير داوى واسبتارى
وأمضى فيه حكم السيف ، وجعل لكل من يأتيه بأسير منهما
خمسين دينارا ، فأتوه فى الحال بمائتين وضرب رقابهم . ثم كتب

(١) العماد ص ٢٨٠ Michaud V. 2 P. 150

إلى الصفى بن القابض نائبه بدمشق أن يضرب عنق من يجده من
الداوية والاسبتارية إلا من أسلم منهم [1] . وكانت هذه الحادثة
الشنيعة هى الوحيدة التى ألصقها المؤرخون باسم صلاح الدين
وعلق عليها أحدهم بقوله « أنه قتل الأسرى بلا ريب ، ولكننا
لا نعرف سببا لهذه المعاملة [2] . »

ومهما كان اختلاف وجهات نظر المؤرخين فى التعليق على
هذه الحادثة،فان صلاح الدين خصص للأسرى الصليبيين معتقلين،
أحدهما فى القاهرة لمن يأسرهم الأسطول على السواحل المصرية
الشمالية أو الشرقية فى البحرين الأبيض والأحمر ، أو من يؤسر
على الحدود المصرية الفلسطينية . من هؤلاء الف أسير وصلت
بهم أساطيل ثغرى دمياط والاسكندرية سنة ١١٧٦ (٥٧٢هـ)
والف وستمائة وتسعون أسيرا ألقت الريح بمراكبهم فى ثغر دمياط
سنة ١١٨١ م.(٥٧٧ هـ) ، وهى السنة التى أسرت فيها القوات
المصرية ألفا من الصليبيين على الحدود الشرقية [3]، وذكر القريزى
بالقاهرة وحدها عدة سجون ، منها حبس المعونة وحبس الصيار
وهما بمصر (مصر القديمة حاليا) ، وحبس الديلم وحبس الرحبه
والجب وثلاثتها بقلعة الجبل ، وخزانة سماعه وخزانة البنود وهما

(١) أبو شامه ج ٢ ص ٩٠ — ابن واصل ص ٢٧٨ .
(٢) Stevensòn op cit P. 218.
(٣) أبو شامه ج ١ ص ٢٧٠ و ج ٢ ص ٧ ، وابن واصل ص ٢٣٢ .

بالقاهرة . غير أنه لم يوضح إذا كانت هذه السجون موجودة بالفعل أيام صلاح الدين ، أم أنها وجدت على عهد المماليك ، إلا أنه خص خزانة البنود بالايضاح ، إذ قال عنها أنها اتخذت سجنا للأمراء والوزراء والأعيان فى عهد الفواطم إلى أن زالت دولتهم فاتخذها ملوك بنى أيوب سجنا يعتقل فيه الأمراء والمماليك ، حتى قيل أن عمارة اليمنى الشاعر المشهور شنق بها سنة ١١٧٤ بعد اكتشاف مؤمراته ضد صلاح الدين أوائل عهده بالوزارة المصرية . والراجح أن صلاح الدين حول هـذه السجون إلى معتقـلات للصليبين، الذين جرت عادته معهم أن يعرضهم فى الشوارع والطرقات لأنهاض روح المصريين المعنوية ، وأمر بحمل أولئك الأسرى على الدواب فى صورة تزيد من تحقيرهم وإذلالهم ، وسجل ابن جبير صورة عرضهم بالاسكندرية فى مايو سنة ١١٨٣م.، حيث اصطف الناس على جانبى الشوارع لمشاهدة الأسرى وهم راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق[١] . وشهد البغاددة سنة ١١٨٩ صورة أخرى لاستعراض من أسرى الصليبيين سيرهم صلاح الدين مع رسوله إلى الخليفة العباسى، وهم على هيئتهم الحربية منكسين أعلامهم[٢]

(١) الخطط ج ٣ ص ٣٠٤ عمارة : النكت العصرية ج ٢ ص ٤٤٨ .

(٢) أبو شامه ج ٢ ص ١٤٥ .

كما شهدوا استعراضاً آخر على صورة مغايرة سنة ١٢١٧ م حين قدم إلى بغداد سفير الملك العادل الأيوبى ، ومعه عدد كبير منهم وعلى صدر كل واحد منهم رأس صليبى مقتول معلق[١] . وما أكثر الشبه بين هـذا وبين مافعله الانجليز والأمريكان مع الأسرى الألمانيين والايطاليين فى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ١٩٤٥) حين سيروهم فى استعراضات طويلة بشوارع العواصم الأفريقية والأوروبية وهم فى طريقهم إلى المعتقلات العسكرية .

واتخذ صلاح الدين مدينة دمشق مقرا للمعتقل الثانى للاسرى الصليبيين ، وهى المدينة التى دأب نور الدين محمود على الاحتفال بعرض الاسرى فى شوارعها احتفالا رهيبا ، حتى أنه أمر بأن يطاف برءوس القتلى منهم ، وشهد الدماشقة سنة ١١٥٧ مثل هذا المنظر الرهيب للاسرى ورءوس القتلى ، وهم مرتبين على كل جمل فارسين من أبطالهم ، ومعهما راية من راياتهم منشورة ، وفيها عدة من جلود رءوسهم بشعرها . والمقدمون منهم وولاة المعاقل والأعمال كل واحد منهم على فرس ، وعليه الزردية والخوذة وفى يده راية ، والرجالة كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر فى حبل .

فلما استولى صلاح الدين على دمشق من الملك الصالح اسماعيل ابن نور الدين بعد وفاة نور الدين سنة ١١٧٤ اتخذها قاعدة لقيادته

(١) أبو شامه : ذيل الروضتين ص ١٠٣ .

ولعملياته الحربية ضد الصليبيين ، ومعتقلا لأسراهم ، وذلك لتوسط موقعها بين ميادين الحرب البرية والبحرية ، وفيها بيع أسرى حطين سنة ١١٨٧ بثلاثة دنانير للواحد منهم . وقيل أن بعض فقراء العسكر احتاج إلى حذاء فباع أسيراً بها . وبلغ من هوان أسرى الصليبيين وكثرتهم أن بيع رجل وزوجته وخمسة أولاد، ثلاث بنين وابنتان بثمانين دينار، كما بيع رجل آخر وزوجته وأولاده فى المناداة بيعة واحدة[١] ، واشترى اتقياء المسلمين الأسرى ليمثلون بهم أشنع تمثيل . فتح معتقل دمشق أبوابه للذين أسروا فى معارك فلسطين والشام ، فاحصى العماد المأسورين فى معركة مرج عيون سنة ١١٧٩ بمائتين ونيف وسبعين، وعهد صلاح الدين إلى الناصح الفيضى والى قلعة دمشق بترحيلهم إليها، فسلمهم هذا الأمير بدوره إلى أصحابه ، وأمرهم أن يأخذوا خط الصفى ابن القابض والى دمشق بوصولهم وأن يحتاط عليهم فى أغلالهم وكبولهم[٢] . ولحق بهذا الفوج فوج آخر فى تلك السنة عدتهم نحو السبعمائة . وفى سنة ١١٨٢ نَحَرَ قائد الأسطول المصرى الأيوبى وهو الشيخ لؤلؤ اثنين ممن أسرهم فى البحر الأحمر فى منى كما تُنحَر البُدن التى تساق هدايا إلى الكعبة[٣] .

(١) ابن القلانسى ص ٣٤٢ — ابو شامة حـ ٢ ص ٨٢

(٢) أبو شامة حـ ٢ ص ٧٨.

(٣) السلوك حـ ١ قسم ١ ص ٦٧ .

غير أنه لم يكن فى وسع ديوان الأسرى الانفاق عليهم جميعاً ، لذلك سلك صلاح الدين طريقة توزيع الفائض منهم على المحاربين المسلمين ، مثال ذلك ما جرى على أسرى بيت المقدس حين عجز خمسة عشر ألف منهم عن تنفيذ شروط الهدنة فاختصوا بشروط الرق ، منهم سبعة آلاف رجل، والباقى من النساء والصبيان قسم صلاح الدين جميعهم بين المسلمين ، بشرط امكان جمعهم أينما كانوا إذا ما احتاج إليهم السلطان فى افتداء أسرى المسلمين . وبلغ نصيب الفارس فى العصر الأيوبى بوجه عام عشرة اتباع يخدمونه أو بضع عشرات إلى مائة ، فضلا عن الأمراء والقواد الخارجين عن هذا التعداد[١] .

وامتازت دولة صلاح الدين بظاهرة فكاك الأسرى المسلمين، ورثتها فيما ورثته عن الدولة النورية إذ المعروف أن السلطان نور الدين محمود حرص على فكاك أسرى المسلمين ، ولاسيما المغاربة منهم لأنهم غرباء . ولا أهل لهم فى الشام ، حتى قيل عنه أنه مرض مرة فنذر تفريق إثنى عشر ألف دينار فى فداء أسرى منهم، وشاركه فى هذه الخصلة الحميدة دمشقيان من مياسير التجار وكبرائهم، هما نصر الدين ابن قوّام وأبو الدر ياقوت مولى العطافى ، وتجارتهما كلها بالساحل الصليبى ، ولاذكر فيه لسواهما وشأنهما

(١) الخطط المقريزية حـ ١ ص ١٥٢ .

فى الفنى كبير ، وقدرهما عند أمراء المسلمين والصليبيين خطير ، ولا يكاد مغربى يخلص من الأسر إلا على أيديهما(١). وسار صلاح الدين على سنة سيده نور الدين وصحبه ، فدأب فى كل بلد يفتحه على البدء بالأسارى المسلمين على قاعدة الانتصار أو بذل المال أو اعطاء أسرى عنده على سبيل المبادلة ، يفك قيودهم ويكسيهم ويوسع أرزاقهم ، خلص من الأسر سنة ١١٨٧ وهى سنة التوفيقات الصلاحية أكثر من عشرين ألف أسير، منهم أربعة آلاف حررهم فى عكا وحدها ، وخمسة آلاف فى القدس ، ومائة أسير فى تبنين ، ومازيد عليهم فى بيت الأحزان . ووقع فى أسره من الصليبيين فى هذا العام ألف أسير(٢) . وسار على نهج صلاح الدين أغنياء المسلمين حتى أصبح أهل الورع والتقوى منهم يقفون المال على فكاك أسرى المسلمين ، منهم المعظم مظفر الدين صاحب أربل ، سيّر فى كل سنة دفعتين جماعة من أمنائه إلى بلاد الساحل ومعهم المال الوفير لفكاك أسرى المسلمين به من أيدى الصليبيين .

وأخذ مرة أحد الأمراء الصليبيين مركباً فيه حجاج من المغاربة يبلغ عددهم أربعمائة رجل وأمرأة ، وعرضهم للبيع فاشترى الأمير اسامة ابن منقذ منهم شاباوشيخاً بثلاثة وأربعين ديناراً ، واشترى

(١) ابن جبير ص ٢٨٢ .

(٢) أبو شامة ﺣ ٢ ص ٨٠ — ابن الأثير ﺣ ١١ ص ٣٩٣ —
Lane Poole : Saladin P. 219.

الأمير معين الدين بن أنر رجلا بمائة وعشرين ديناراً(١) .
ولم يدخر الأسرى المسلمون وسعاً فى اتباع كافة الحيل والسبل للخلاص من الأسر ، من ذلك نادرة لطيفة حدثت لأحدهم وقد اعتقل بعكا فأدخر حبلا فى وسادته وتدلى به من نافذة فى المرحاض ، واشتد هربا فى قيوده إلى تل العياضية حيث اختبأ فى الجبل حتى مطلع الفجر، ثم كسر قيوده وأسرع فى العدو إلى المسلمين(٢) .

ويشرف على شئون الأسرى ومشاكلهم إدارة يطلق عليها ديوان الأسرى(٣) وبه سجلات جميع أسرى المعتقلات ، وعلى كاتب المعتقل أن يدون عدد المعتقلين الذين وردوا إلى المعتقل قبل تسلمه العمل، ثم يبدأ بتفصيل أسماء المعتقلين وجرائمهم وأجناسهم ومللهم ، ويضيف أسماء الجدد إلى هذه القائمة يوماً بعد يوم ، ثم يذكر من أفرج عنهم إما بمقتضى المراسيم فيذكر تواريخها وأسماء من حضرت على يده ومن تسلم المعتقل ، وإما بالهداية إلى دين الإسلام من الأسرى فيذكر إسم المهتدى وجنسه وتاريخ إسلامه والإفراج عنه ، أو من فُودى به أو من هرب من الأسر أو من هلك بالموت بعد اعتبار ما يجب اعتباره من الهالك ،

(١) اسامة ص ٩١ .

(٢) أبو شامة ﺣ ٢ ص ١٩٣ .

(٣) تاريخ الجزرى ج ٢ ص ١١

ويستقر بالجملة بعد ذلك ،واستقرار الجملة هو الحاصل على قول النورى(٣) . وامتدت وظيفة ديوان الأسرى إلى أسرى المسلمين الذين يفكهم الديوان ويشتريهم من تجار الصليبيين، وجعل للتجار فائدة فى كل مائة درهم شىء معلوم تشجيعاً لهم على إحضار أسرى المسلمين إلى دمشق حيث يكسون ويطعمون ويطلقون(٤) .

وهكذا دلت هذه الأمور كلها على مبلغ عناية صلاح الدين بالأسرى وتنظيم إدارتهم تنظيما دقيقاً ، رغم مالاقاه من مشا كل وصعوبات ناجمة عن عدم الإلمام بلغات الأسرى لاختلاف أجناسهم وتباين لهجاتهم ، وأشار فى خطاب له إلى الخليفة العباسى إلى تلك المشا كل إذ قال « واجتمع فى هذه الجموع من الجيوش المغربية والألسنة الأعجمية من لا يحصر معدوده حتى أنه إذا أسر الأسير ، واستأمن المستأمن احتيج فى فهم لغته إلى عدة تراجم ينقل واحد عن آخر ، ويقول ثان ما يقول أول ، وثالث ما يقول ثان(١) » والظاهر أن صلاح الدين نفسه لم يعرف شيئاً من لغات الأسرى بدليل استعانته دائماً بترجمان يقوم بينه وبينهم ، ووقف أسير صليبى مرة بين يديه وعلى وجهه إمارات الخوف والجزع فسأله الترجمان « من أى شىء تخاف » فأجاب بقوله :

(١) نهاية الأرب ج ٨ ص ٢٨٣
(٢) تاريخ الجزرى ج ١ ص ١٣٥ ، ١٣٦
(٣) ابن واصل ص ٣٧٨ — أبو شامة ج ٢ ص ١٨٥

« كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه ، فبعد رؤيتى له وحضورى بين يديه ،أيقنت أنى ما أرى إلا الخير ». فرق له صلاح الدين ومنّ عليه وأطلقه(١) .

وإذا انتقل حديث الباحث بالأسرى إلى المعسكر الصليبى لاحظ ندرة افتداء أسرى الصليبيين بالمال ، ومرد ذلك فى الغالب أن أولئك الأسرى خليط من أجناس وشعوب أوروبية متباينة، أو أجناد من الغرباء المأجورين الذين رغبوا السفر إلى الشرق، تخلصاً من رق الأرض السائد وقتذاك فى المجتمع الأوروبى ، وربما يكون لنظام هذا المجتمع أثر كبير فى عدم الإهتمام بتحرير أسرى الصليبيين ، فالروابط الأسرية والقومية بين الأوربيين تكاد تكون معدومة ، ويسوق الدليل على هذا القول أرنول المؤرخ المسيحى المعاصر، حين يتحدث عن موقف فقراء الأسرى الصليبيين الذين أطلق صلاح الدين سراحهم بعد فتح بيت المقدس، إذ ما كاد حاكم مدينة طرابلس الصليبى يعلم بوصولهم إلى أبواب مدينته، حتى أغلق فى وجوههم أبوابها ، وأرسل قواته تسلبهم أمتعتهم وما جاد به المسلمون عليهم من كرم الضيافة، وذهب جماعة آخرون من النساء والأطفال إلى مدينة صور ، فرفض حاكمها الأمير كونراد إدخالهم حتى لا يتحمل مسئولية الدفاع عنهم . ورغبت جماعة ثالثة الإبحار

(١) العماد ص ٢٠ — ابن شداد ص ٤٦

إلى أوروبا ، فامتنعت السفن الإيطالية الراسية فى المياه المصرية عن حملهم بدون أجر، حتى تدخلت السلطات المصرية فى الأمر وألزمتها حمل المهاجرين (١) على قول أرنول نفسه شاهـد العيان . غير أن أغنياء الصليبيين افتدوا أنفسهم من الأسر بالمال، أمثال ابن بارزان الذى بذل فى نفسه بعـــد سنة من أسره مائة وخمسين ألف دينار (٢) صورية، وأطلق ألف أسـير من المسلمين . وكذلك ابن القمصية الذى استفكّته أمه بخمسة وخمسين ألف من الدنانير الصورية، ومات الأمير أود فى الأسر، فأخذت جيفته بأسير مسلم أفرج عنه فوراً (٣) ، وانتقد أحد المؤرخين بطريق بيت المقدس لعدم فكاكه بعض الأسرى المسيحيين وهو قادر على ذلك ، لأن صلاح الدين سمح له بالهجرة من المدينة بعد فتحها، حاملا معه كل مجوهرات الكنائس والتحف الثمينة والأموال الوفيرة ، فآثر البطريق الاحتفاظ بها على انفاقها فى فكاك الأسرى ، وأصبح

---

(١) Runciman : op. cit .p467—Stevenson op cit p. 231

(٢) الدنانير الصورية أو المشخصة أو الأفرنتية هى الإفرنجية ، وميزتها عن الدنانير المصرية الإسلامية فى العصور الوسطى أن صور ملوكها منقوشة على وجوهها السلوك ج ١ قسم ١ ص ٧٨ .

(٣) السلوك ج ١ قسم ا ص ٦٨ .

من الخير للأسير الصليبى أن يظل نزيلا بمعسكر صلاح الدين، من أن يموت جوعاً فى خيمة صليبية (١) .

ولما كان هذا هو موقف الصليبيين من أسراهم ، فإنه لم يكن متوقعاً أن يعاملوا أسرى المسلمين معاملة تنطوى على أى مظهر من مظاهر الرحمة والإنسانية ، بدليل استخدام الأسيرات المسلمات فى إدارة طواحين اليد وخلاخيل الحديد فى أرجلهن، وقيام الرجال المسلمين بالخدمة الشاقة، وهم يرسفون فى قيود الحـديد والخشب المنقوب (٢) ، ولم يقف الأمر بأسرى المسلمين عند هذا الحد من التعذيب والإذلال ، بل تعداه إلى القتل والإعدام فى أبشع صوره ، وحسب القارىء أن يقف على قصة ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا مع أسرى المسلمين بمدينة عكا . اتفق الجانبان الإسلامى والصليبى على تسليم حامية مدينة عكا المدينة للصليبيين، ودفع الفدية المالية المقررة على الجانب الإسلامى، مقابل فكاك أسرى المسلمين وأن تدفع الفدية على أقساط ثلاث ، يدفع كل منها أول كل شهر، ويكون استحقاق القسط الأول فى نهاية يوليو سنة ١١٩١ . ولما حضر مندوبو ملك انجلترا لاستلام القسط الأول، طلب صلاح الدين منهم تسليم أسرى عكا مقابل هذا القسط ، على أن يسلمهم رهائن مقابل القسطين

---

(١) Lane-Poole-Saladin p.231&276

(٢) Michaud V. 4. p. 157 — ابن جبير ص ٢٩٠ — ابن الأثير ج ١٢ ص ١٠ .

الثانى والثالث ، فأبى المندوبون وتشكك كل فريق فى نية الآخر، وتوقفت عملية مبادلة الأسرى بين الفريقين . وفى عصر يوم الثلاثاء ٢٠ أغسطس سنة ١١٩١ خرج ريتشارد بأسرى المسلمين وعددهم ألفين وسبعمائة إلى الآبار الواقعة خارج مدينة عكا ، وأمر بذبحهم على مرآى من المسلمين والصليبيين . وعلم صلاح الدين بخبر هذه المجزرة التى لم يسبق لها مثيل فى التاريخ ، فلطم على رأسه ونتف لحيته من شدة تأثره، ولم يأخذ أسرى الصليبيين بجريرة ريتشارد، بل أرجعهم إلى معتقلهم فى مدينة دمشق سالمين . وقرر قتل كل من يقع فى يده أسيراً من الصليبيين بعد هذا التاريخ [١] . ومهما اختلفت وجهات نظر المؤرخين فى التعليق على مذبحة عكا ، فإنها أججت روح العداوة والبغضاء بين الفريقين المتحاربين، وعرّضت حياة الأسرى فى كل من المسكرين للخطر والفناء، وغدت روح الإنتقام وسفك الدماء هى السائدة بدلا من المعاملة الإنسانية والرفق بالأسرى ، وبلغت الوحشية إلى درجة يستنكرها العقل والمنطق ، إذ يأسر المسيحيون مسلماً ثم يقتلونه ويحرقونه ، ويأسر المسلمون منهم واحداً فيقتلونه ويحرقونه أيضاً ، ويشهد بذلك

(١) أبو شامة ج ٢ ص ٧٩ Stevensonp.1274 — راجع التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين للمؤلف ص ٢١٠ النسخة المحفوظة بمكتبة كلية آداب القاهرة .

مؤرخ معاصر رأى بعينيه النارين فى المعسكرين تشتعلان فى وقت واحد [١] .

وإذ وقف القتال وانتهت المعركة، يكلف صلاح الدين من يثق فيهم من رجاله ، كالعماد وابن شداد ، بإحصاء القتلى والجرحى والمفقودين، ليعرف حساب المكسب والخسارة ويقارنه بمثله عند الصليبيين . ودل الإحصاء على قتل ثلاثين ألف من الصليبيين فى واقعة حطين سنة ١١٨٧ . وشهد ابن الأثير بعد عام من حدوثها أكوام عظامهم على أرضها ، فضلا عما كسحته السيول، مما جعل الوديان والتلال هناك مزاراً للحيوانات الكاسرة [٢] . واستخدم المسلمون جثث قتلى الصليبيين فى طم الخنادق وجباب الماء ، إذ ألقوا سبعمائة جثة فى جب ماء وجدوه داخل حصن بيت الأحزان . وقدر الإحصاء خسارة الصليبيين طول مدة حصارهم لعكا بخمسين ألف قتيل، على حين قدرها الصليبيون أنفسهم بمائة وعشرين ألفاً، مقابل مائة وثمانين ألفاً للمسلمين [٣] . وأحصى ابن الأثير الصليبيين الخارجين من البحر إلى عكا بستمائة ألف ، لم يعد منهم إلى بلادهم سوى عشرة فى كل

(١) ابن الجوزى : مرأة الزمان ٢٨٢ .

(٢) أبو شامة ج ٢ ص ٨٢ — ابن واصل ٢٠٦ — Lane Poole: Saladin P 215 Campbell the Crusades : P 259 وقيل إن نسبة جيش صلاح الدين العددية إزاء خصومه يوم حطين كنسبة واحد إلى أربعة . راجع : رفيق التميمى ص ١٤٧ .

(٣) ابن واصل ص ٢٠٦، ٣٨٤ — Brehier : L' Eglise. P132

مائة . وقدر أحد الصليبيين عدة الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة بأكثر من ربع مليون مقاتل (١) .

إزاء هذا الاختلاف البين بين المؤرخين ، يتعذر على الباحث أن يعطى أرقاماً صحيحة عن عدد المحاربين والقتلى ، فضلا عن أن قادة الجيوش أنفسهم لم يتركوا سجلات رسمية بمن معهم من الأجناد ، كما التزم بعض مؤرخى العرب الصمت فى كثير من الحالات عن عدد القتلى من جيوش المسلمين ، مع اكتفائهم بإظهار الأسى والحزن لمن فقد واستشهد فى ساحات الجهاد ، وأحصوا جيوشهم بألفاظ لغوية مائعة كقولهم : لا يحصى عددهم ، وعسكراً عرمرماً ، وجيشاً جراراً ، وعددهم كعدد الجراد أو كعدد رمال الصحراء (٢) . لذا وجب على المؤرخ أن يحذر روح المبالغة السائدة بين المؤرخين المعاصرين ، شرقيين وغربيين سواء ، فى إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر ، إذ هى مظنة الكذب ومطية الهذر على قول ابن خلدون (٣) .

---

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ٥٦ — Lamb : The Crusades P 292

(٢) أبو شامة ج ٢ ص ١٤٥ ، ١٥٥ — Lamb: op.cit 275

(٣) المقدمة ص ٧ طبعة بولاق .

وطبيعى أن يجمع المسلمون شهداءهم من بين قتلى الصليبيين كى يصلى عليهم قاضى العسكر وجماعة الفقهاء ، ثم يواروهم بدمائهم التراب . ولشدة حرصهم فى الصلاة على شهدائهم ، استأذنوا الملك رتشارد فى حمل سبعة آلاف منهم استشهدوا بواقعة أرسوف سنة ١٢٩١ ، من بينهم إثنان وثلاثون من الأمراء البارزين (١) . أما الصليبيون فاعتادوا ترك جيف قتلاهم فى ساحة المعركة تنهشها النسور والضباع والطيور ، حتى أن صلاح الدين — خوفاً من نتن رائحتها — أمر مرة وهو على حصار عكا ، بحمل أكثر من خمسة آلاف جثة صليبية على عجل وإلقائها فى النهر (٢) .
وإذا ما قتل من الصليبيين قتيل أثناء سيرهم حملوه وستروه ، دون أن يحس العرب نقصاً فى عددهم أو ضعفاً فى قوتهم .

ولم تكن عناية صلاح الدين بجرحى المسلمين أقل من عنايته بشهدائهم . إذ دأب على الجلوس فى خيمته عقب انتهاء المعركة حيث يحضرون الجرحى بين يديه ، ثم يتقدم بمداواتهم ومواساتهم وإكسائهم (٣) . وليس من اليسير على الباحث أن يقف على تفاصيل الخدمات الطبية فى جيش مصر على عهد صلاح الدين

---

(١) الدوادارى : كنز الدرر ص ٧٣ — Lane Poole : Saladin P 320

(٢) ابن الأثير ج ١٢ ص ٢٤ ، ٢٣ .

(٣) أبو شامة ج٢ ص ١٩١ .

رغم ما وصل إليه علم الطب من تقدم فى هذا العصر ، إذ المعروف أن صلاح الدين أمر فى سـنة ١١٨١ بفتح مارستانين للمرضى والضعفاء ، أحدهما بالقصر وأفرض برسـمه من أجرة الرباع الديوانية مشاهرة ، مبلغها مائتا دينار وغلات جهاتها الفيوم . وعين له أطباء وطبائعيين وجراحين ، ومشارف وعاملا وخدماً ، والأخر فتحه بمكان فى مصر القـديمة ، وعين له طبيباً وعاملا ومشارف ، وجعل العلاج فى الاثنين مجاناً ، واتخذ نمطها — وهو أشبه بالمساجد — من المستشفى النورى بدمشق[١] . وزار ابن جبير الرحالة الأندلسى الأول منهما أواخر سنة١١٨٢،وعاين ما به من خزائن العقاقير وأنواع الأشربة وأسرة المرضى،ويشرف على هذا البيمارستان طبيب وعدد من الخدمة يتفقدون أحوال المرضى، وبالمستشفى جناح خاص بالنساء المرضى ، ولهن من يكفلهن، وجناح آخر للمجانين ولهم أيضاً من يتفقد فى كل يوم أحوالهم . وأنشأ صلاح الدين مارستاناً بالإسكندرية خصصه لمعالجة الغرباء، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، فضلا عن وجود بيمارستانين بدمشق،أحدهما لنور الدين والآخر لصلاح الدين، يستقبلان بانتظام المرضى والمجانين[٢] . هكذا اهتم صلاح الدين بالمرضى العاديين،

---

(١) الخطط المقريزية ج ٢ ص ٢٥١ .

(٢) ابن جبير ص ٢١ ، ١٠ ، ٢٦٣ — Lamb : op. cit P42

ولا شك أنه حول تلك المستشفيات جميعها إلى الإدارة العسكرية لاستخدامها فى استقبال الجرحى فى ميادين القتال ، فضلا عن إنشائه المستشفيات العسكرية المتنقلة وراء جيوشه من جبهـة حربية إلى أخرى ، وعين بها الأطباء العسكريين المتخصصين كل فى فرعه .

الحق أن المصادر التى تناولها الباحث لم تشر بصريح العبارة إلى شئ من هذا التخريج ، غير أن بعضها ينسب إلى أخى صلاح الدين الملك توران شاه أنه اصطحب معه الأطباء فى حملتـه إلى بلاد اليمن سنة ١١٧٣ ، كى يتخيرون مكاناً صحيح الهواء والماء ليتخذ فيه سكناً لعسكره ،ووقع اختيارهم على مكان قفر ، فاختط به المدينة وأنزل به جنـده وبقيت كرسيا لملكه[٢] . ويصف ابن منقذ طب الصليبيين بالسذاجة والجهل، إذا ما قورن بالطب العربى ويدلل على ذلك بعدة أمثلة[٣] . واشتهر فى ذلك العصر طائفة كبيرة من الأطباء بالمعرفة والعلم فى صناعة الطب،منهم يوحنا ابن بطلان الطبيب المشهور بحلب،والطبيب أبو الوفا تميم،والطبيب يحى المتخصص فى صناعة التجبير . ومن أطباء دولة صلاح الدين الممتازين،ابن ميمون الطبيب اليهودى الذى قابله الرحالة عبداللطيف

---

(١) عمارة : تاريخ اليمن ص ١٢٠ .

(٢) اسامة : ص ٩٧ ، ٤١ ، ١٢١ .

البغدادى سنة ١٩١١ م بالقاهرة ، وأشار بفضله وعلمه وتأليفه فى صناعة الطب[١] .

أما أبو الفضل الطبيب (٥٣١ — ٦٠٢ ﻫ) فتخصص فى معرفة الباطن ، وصار « علامة زمانه فى صناعة الطب والكحول » وله حانوت فى اللبادين لصناعة الطب والكيمياء ، امتدح صلاح الدين تصنيفاته الكثيرة واحترمه وأغدق عليه . ولم ينظم أحد فى الكيمياء مثلما نظم أبو الحسن الأنصارى الأندلسى الجيانى صاحب كتاب « شذور الذهب فى صناعة الكيمياء » . ومما يوصى به الجراح الحربى أن يحمل معه آلة لإخراج النصال والسهام التى تغوص فى الأجسام[٢] .

وفى صفحات كتب التاريخ المعاصره[٣] ، كثير من الشواهد على مصاحبة صلاح الدين لأولئك الأطباء فى ميادين القتال ، وحرصهم على تفادى انتشار الأوبئة والأمراض بالمعسكر ، والسهر على راحة السلطان وجنده ، ولا أدل على ذلك من إرسال

(١) اسامة : ص ٨ ، ١٣٥ ، ١٣٧ .

(٢) ابن خلكان ج٢ ص١٦ ، ٩١ طبعة بولاق — العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٤ .

(٣) أبو شامة ج ٢ ص ١٥ ابن شداد ص ١٧ أبو الفداء ج ٣ ص ٩٠

صلاح الدين سنة ١١٩١ أطباءه العسكريين[١] لمعالجة الملك رتشارد وهو على حصار عكا من مرضه ، ومصاحبة طبيب الملك العادل الخاص لرتشارد فى عودته إلى أوربا بعد تمام صلح الرملة سنة ١١٩٢ . وهذا دليل تفوق العرب على الصليبيين فى فن الطب ، وتفضيل جميع ملوك مملكة بيت المقدس ورؤساء الأمارات اللاتينية فى الشرق أطباء العرب على الغربيين[٢] . وهذا لا يعنى إغفال الصليبيين لجرحاهم ومرضاهم ، فالمعروف أن بعض التجار الألمان أنشأوا — وهم على حصار عكا — مستشفى من الخيام أعدوها من شراع السفن لتخفيف آلام الجرحى والمرضى ، وغدت هذه الخيام نواة المستشفى التى أقامها الأمراء الألمان فيما بعد بعكا سنة ١١٩٧ . وشهد ابن جبير بعكا وبصور وبجزر البحر الأبيض كثيراً من كنائس النصارى ، حولت إلى مستشفيات عسكرية وأعدت لمعالجة مرضاهم على نمط مارستان المسلمين[٣] .

على أن أهم مخلفات المعركة على عهد صلاح الدين هى الغنائم ،

(١) طبيب صلاح الدين الخاص هو اسعد بن الياس بن جرجس المطران موفق الدين ، شيخ الأطباء بالشام المتوفى سنة ٥٨٥ ﻫ ، أما شيخ الأطباء بالديار المصرية فكان شرف الدين أبو المنصور عبد الله بن على السديد المتوفى سنة ٥٩٢ والذى خلف الموفق عدنان بن عين زربى المتوفى سنة ٥٩١ وأخذ منه الصناعة والرآسة . (الذهبى ج ٢٦ ص ١٢١ ، ٢٤٤) .

(٢) Michaud. V, 4 p 311 .

(٣) ابن حبير ص ٣١٤ .

والحديث عنها يبين ما اتصف به صلاح الدين من شدة التدين والتمسك بأهداب الدين وحصافة الرأى ، وأكبر الظن أنه طبق فى توزيعها قوله تعالى « وأعلموا إنما غنمتم من شىء ،فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . استنتاجا لما فعله بعد فتح القدس سنة ١١٨٧ ، إذ وزع جميع ما وقع فى يده على المعيل وابن السبيل والأجناد والمجاهدين ، وأسارى المسلمين ، وخص العلماء والفقهاء والصوفية بنصيب كبير ، فبلغ ما وزع على تلك الطائفة وحدها نيفا وثلثمائة ألف دينار[١]. واستكثر أصحابه ما وزع من المال ونصحوه بإضافته إلى بيت المال لينفق منه فى أبواب الجهاد فرفض قائلا « كيف أمنع الحق مستحقيه » .

وهناك غنائم لا يجوز توزيعها لعامة الناس ، ومن طريف ذلك أنه عثر فى مدينة آمد بعد فتحها على خزانة كتب ، فيها مليون وأربعين ألف كتاب، وهبها للقاضى الفاضل فانتخب منها ما حمل سبعين جملا[٢]. أما الغنائم التى لم تحل لأحد فاحتكم فيها صلاح الدين إلى قاضى العسكر[٣]. ودلت الأخبار على أن

(١) ابن واصل ص ٣٥ — ابن الجوزى : مرآة الزمان ص٢٥٢ .

(٢) العماد ص ٥٦ — Lane Poole : Saladin 179 .

(٣) العمرى : التعريف ص ١٢٣

صلاح الدين لم يحتفظ بشىء لنفسه من تلك الغنائم ، مما يثبت اتساع أفقه كزعيم سياسى ،وعمق تفكيره كقائد حربى، إذ استطاع بفضل تلك السياسة الحكيمة أن يسوس رجالا أكبر منه سنا وأكثر خبرة، فألف بين قلوبهم وتفانوا فى خدمته ، كما مكنته تلك السياسة أيضاً من أن يزيد من رباط الوحدة الإسلامية ويكسب احترام الأمراء العسكريين فقبلوا زعامته لهم طائعين ، وأخرس ألسنة خصومه المغرضين من أمراء المسلمين فحال بينهم وبين الإرتماء فى أحضان الصليبيين . وليس فى هذا القول مغالاة أو إسرافا فى التصوير ، ففى الرواية المعاصرة وصف رائع لخروج صلاح الدين وأولاده وكبراء دولته لاستقبال المجاهدين من أمراء المسلمين ،وتوديعهم فى أوقات السلم والحرب فى قاعدة حكمه بدمشق وفى مخيمه بعكا والقدس ، وما أعده لهم من خيام وتحف ولطائف وخيول وهدايا ، مما يفسر ويؤكد كياسة صلاح الدين وعبقريته السياسية والحربية حتى غدا سنة ١١٩١ أكبر شخصية فى العالم الإسلامى بلا منازع على قول المؤرخين[١].

على أن الحروب التى شنها جيش مصر زمن صلاح الدين على الصليبيين بالشام أثرت تأثيراً كبيراً فى الناحية الاقتصادية ببلاد الشرق الإسلامى ، وأول أثر لذلك ارتفاع أسعار الحاجيات

(١) أبو شامة ج ٢ ص ١٢١،١٥٣ — ابن اثير ج١٢ ص ١٥٠

وانخفاضها تبعاً للنشرات الحربية الواردة من ميادين القتال ، إذ ما كادت الأوامر الصلاحية تصـدر إلى العسكر بأخذ زاد عشرة أيام أخرى زيادة للاستظهار حين خرج سنة ١١٧٧ لغزو غزة وعسقلان،حتى ارتفعت أسعار الحاجيات فى الأسواق وخطر للعماد الـكاتب ، وهو المؤرخ الحربى لجيش مصر وقتئذ ، العدول عن الإشتراك فى هذه الغزوة ، وأمر خادمه بعرض أحماله وأثقاله للبيع منتهزا فرصة هذا السعر المرتفع [١] . وفى سنة ١١٨٩ أسعرت غلة انطاكية وبلغت الغرارة اثنى عشر دينارا وأشرف الناس فيها على البوار والهلاك . وفى سنة ١١٩٠ وردت الأخبار بمجىء فردريك بربروس امبراطور ألمـانيا إلى الشرق ، وأدرك أحد أمراء صلاح الدين — وله قرية بالموصل — أنه ليس للمسلمين مقام بالشام ، فـكتب لناظر زراعته بتلك القرية يأمره بتحصيل دخلها من شعير وحنطة وتبن وعدم بيعه لتـكون ذخيره لهم ، وما كادت الأخبار تشاع بغرق فردريك فى الطريق وهلاكه بآسيا الصغرى ،حتى أسرع هذا الأمير وكتب لناظر قريته يأمره ببيع المحصولات والإنتفاع بثمنها قبل هبوط الأسعار [٢] . وأحدث حصار عـكا الطويل (١١٨٩ — ١١٩١) ضيقا شديدا لأهلها وغلات الميرة بها،وأصبح التبن أعز من التبر، وندر وجود الشعير

(١) أبو شامة ج ٢ ص ٢٧ .
(٢) العماد ص ١١٩ — ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٢ .

مع غلو سعره ، فأرسل صلاح الدين إلى الإسكندرية فى طلب إنقاذ الأقوات واللحوم وأبطأت عليه البطس ، فـكتب إلى والى بيروت أن يعطى ويتزكى ويحتال فى إنفاذ ميره إلى عـكا فعمر بطسة كبيرة وملأها بأربعمائة غرارة قمح ، ونقل إليها أنواع الطعام وقطيعا من الأغنام والنشاب والنفط ، فوصلت عكا قبل وصول بطس الإسكندرية وأنقذت الحامية والسكان من هلاك نازل [١] .

ولم تـكن أحوال المعسكر الصليبى الاقتصادية أحسن منها فى المعسكر الإسلامى ، إذ بلغت غرارة الحنطة به أكثر من مائة دينار صورى فى سنة ١١٨٨ [٢] ، وبيع كيس الغلال عندهم بمائة قطعة من الذهب ، والبيضة الواحدة بستة دنانير وأمعاء الحصان بعشر قطع ذهبية ، واضطر معظم النبلاء والأشراف ممن اعتادوا حياة الترف والنعيم إلى أكل الحشائش والنباتات ، واشترى أخوان ثلاثة عشرة فوله . تبين لهما بعد الرحيل فساد إحداها فرجعا لمسافة طويلة ، يبحثان عن البائع لاستبدالها بأحسن منها [٣] . وأكره الجوع بعضهم على السرقة ، وهرب جماعة منهم إلى المسلمين فاستأمنوا إليهم وآثروا البقاء عندهم بعد

(١) العماد ص ٣١٢ — أبو شامة ج ٢ ص ١٦٠ .
(٢) ابن الأثير ج ١٢ ص ٣٥ .
(٣) Campbell op. cit P 293 Lane Poole: Saladin p 276

شيعهم ، فمنهم من أسلم لحسن إسلامه ، ومنهم من خدم فوافق استخدامه ، ومنهم من ركب سفن المسلمين قاصدا قبرص وسواحل سوريا ، ومنهم من عاد إلى عسكره عندما هدأ البحر ودخلت لهم السفن بالغلال[1] . وحاول قادة الصليبيين قدر طاقتهم تحديد أسعار الحاجيات داخل معسكرهم ، وأصدر الملك رتشارد قائمة بها أسعار النبيذ والخبز واللحم، غير أن كل هذه المحاولات لم تجد نفعاً أمام جشع تجارهم وإدخارهم الغلال ، بغية إرتفاع الأسعار عندما يحل الشتاء وينقطع العون الأوربى ، وقيل أن تاجراً من بيزة أدخر مئونة كبيرة لبيعها زمن الشتاء ، ثم اشتعلت النيران فى مخزنه، فأبادت جميع ما فيه وتلفته .وإذا ما حل الصيف وجاءت الإمدادات انخفضت الأسعار لغرارة القمح من مائة دينار إلى أربعة دنانير . واستخدم الصليبيون طواحين اليدفى طحن غلالهم ، فضلا عن ما كينة الطحن التى اخترعها الألمان أثناء حصارهم عكا وتدار بالخيول[2] .

كيفما كان الأمر فإن صلاح الدين حاول ما استطاع تجويع الصليبيين بأحكام الحصار الاقتصادى على مواردهم البرية والبحرية ليضطرهم إلى التسليم ، إذ اعتاد مثلا فى سنة ١١٧٨ أن يصبح يومياً بالنزول على الحدود بينه وبين العدو ، بحجة الصيد ويجرد

(١) أبوشامه جـ ٢ ص ١٦٥ .

(٢) Michaud Vol iv P 157 .

العساكر وقبائل العرب إلى حقول صيدا وبيروت حتى يحصد غلاتها، وما يبرح منزلته حتى يعود أصحابه بجمالهم وأحمالهم من تلك المزارع[1] غير أن سياسة الحصار الاقتصادى اضعفها بعض أمراء صلاح الدين ، الذين أغراهم ارتفاع الغلاء فدفعهم إلى الاتجار فيمايسمى بلغة العصر الحديث السوق السوداء ، فهربوا الغلال إلى الصليبيين لبيعها بأثمان مرتفعة . ومن اولئك الأمراء رجل اسمه سليمان نقل إلى إمارة انطاكية الصليبية اثنى عشر ألف غرارة من غله بغراس،زائدة عن أقواتها وباعها بذهب يغله لحسابه الخاص[2] . وفى سنة ١١٨١ (٥٧٧) علمت إدارة تموين الجيش المصرى أن العربان يهربون الغلال من مصر لبيعها إلى الصليبيين،فأمر السلطان صلاح الدين بالحوطة على مستغلاتهم[3] بالشرقية ، وأمروا بالتعدية إلى البحيرة ، ووقعت الحوطة على إقطاع جزام وثعلبة على وجه الخصوص ، لكثرة حملهم الغلال إلى الامارات الصليبية بالشام[4] . وحذا حذو العربان فى حمل الطعام إلى الصليبيين الأميران أسامة مستحفظ بيروت ، وسيف الدين على ابن أحمد المشطوب مستحفظ صيدا[5] . تلك صورة من صور المشاكل

(١) ابن واصل ص ٢٠٨ .

(٢) العماد ص ١١٩ .

(٣) هو كل ما أغل من أرض أو عقار أوحانوت أوسوق أوطاحون راجع السلوك جـ ١ قسم ١ ص ٧١ .

(٤) السلوك جـ ١ قسم ١ ص ٧١ .

(٥) ابن الأثير جـ ١٢ ص ٣٥ .

المديدة التى واجهت صلاح الدين ، وهى بلا ريب ثمرة نظام الاقطاع الحربى الشائع بين جيوش الشرق والغرب سواء ، ذلك النظام الذى يقرر على الأمير تقديم عدد معين من الجند وكمية معينة من الغلال إلى السلطان سنويا ، وما فاض عن هذا المقرر يتصرف الأمير فيه بمحض ارادته ، وقد يحدث أحيانا أن يتوقف الأمير عن الوفاء بهذا المجعول ، رافضاً الاستمرار فى الجهاد لأسباب يدعيها ، وفى مثل هـذه الحال تتحمل مصر وحدها عبء إمداد الجيوش المقاتله بالميرة والذخيرة والدواب والعمال لتواصل الجهاد ضد الصليبيين ، ولتوفى بما قطعته على نفسها من عهد فى رسائلها مع الخليفة العباسى فى بغداد ومع بقية أمراء المسلمين . وآية ذلك عبارة القاضى الفاضل وهو بمصر سنة ١١٩١ ، يرتب أمور صلاح الدين بها من تجهيز العساكر وتعمير الأسطول وحمل المال ونقل المير إلى عكا وصلاح الدين بها محاصر ونصها ..

« وسهل لك من مصر مالا من غير جهة ، وحمى منها بلاداً بغير جند ، وسكن فيها رعية بغير ولاة ، فاشكر الله[١] » .

وخطا صلاح الدين خطوات موفقة رتيبة، فى نقل الأخبار بين القيادة العليا لجيشة وبين فرقه فى مختلف ميادين القتال، مستخدما فى ذلك جميع وسائل البريد المعروفة فى عصره من جوى ورى

(١) راجع أبو شامة جـ٢ ص ١٦٦ .

وبحرى وجاسوسية . ويرجع فضل السبق فى هذا المضمار إلى سيده نور الدين محمود ، الذى اتخذ الحمام الهوادى سنة ١١٧١ ، ورتب فى كل ثغر رجالا ومعهم الحمام بحيث إذا نازل الصليبيون أحد الثغور أتاه الخبر ليومه[١] . حدث مثل هذا لصلاح الدين سنة ١١٧٤ وهو فى منزلة العساكر بفاقوس ، إذ ورد إليه الخبر على جناح طائر من الاسكندرية بوصول الصليبيين إليها ، فاستنهض صلاح الدين العساكر إلى ثغرى الإسكندرية ودمياط ، حيث تمكنت من مباغتة العدو وقهره قبل أن ينصب خيامه على الثغرين[٢] . وفى سنة ١١٧٨ تقابل الأمير فرخشاه ابن أخى صلاح الدين مع الهمفرى أحد الأمراء الصليبيين ، وانتصر عليه فى واقعة هامة، ووردت بطاقة الطير فى نفس اليوم إلى صلاح الدين وهو بدمشق ، تحمل إليه خبر هذا النصر المبين[٣] . ولم يكن لصلاح الدين من سبيل للاتصال بمصر والعالم الاسلامى أثناء محاصرة الصليبيين له على عكا (١١٨٩ — ١١٩١) سوى أسراب الحمام الزاجل، التى شقت عنان السماء حاملة فى اجنحتها أنباء مصر ومايجرى فيها من حوادث ، على حين يتناول بعض الحمام رسائل الود بين صلاح الدين وصديقه الأمبراطور اسحاق أمبراطور

(١) أبو شامة جـ ١ ص ٢٠٧ .
(٢) العينى جـ ٢١ قسم ٣ ص ٥٦٠ .
(٣) أبو شامة جـ ٢ ص ٦ .

بيزنطة[١] . وشغف أحد أمراء المسلمين وهو على عكا بتربيته الحمام الزاجل ، يطوف على خيمته وينزل فى منزلته ، وعمل لها برجاً من خشب وهوادى من قصب ، ويدرجها على الطيران من البعد ، وقيل له ما لهذا الولع بما لا ينفع ، حتى جاءت نوبة عكا فنفعت ، وطلبها السلطان منه مع الليل والنهار ، حتى قل وجودها لكثرة الارسال بين العسكر وأهل البلد المحاصرين[٢] .

ثم اشتد حصار العدو لعكا وتعذر الاتصال نهائياً بين حامية المدينة وقيادة جيشها ، فاستعان صلاح الدين بوسيلة أخرى أكثر سريه ، وأمنا من الحمام وهى وسيلة البريد المائى، مستخدماً أمهر السباحين يعومون وعلى ظهورهم الكتب والنفقات والمؤن ، يخترقون الحصار البحرى للعدو حتى يصلوا الميناء ويعودون بالأخبار إلى صلاح الدين . ومن النوادر الطريفة عن أحدهم واسمه عيسى العوام ، أنه خرج ذات ليلة وعلى وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف ألف دينار وكتب للعسكر ، عام فى البحر ولم يسمع له خبر ، لأن عادته إذا دخل البلد طار طائر ، عرف العسكر بوصوله فابطأ الطائر ، واستشعر صلاح الدين هلاكه وظن به الظنون ، وبعد أيام وُجد عيسى ميتاً غريقاً على طرف البحر وعلى وسطه

(١) Lane Poole: Saladin P 270 — راجع الفصل السادس من كتاب نظام البريد فى الدولة الإسلامية للمؤلف .

(٢) أبو شامة جـ ٢ ص ١٥٢ .

الأكياس[١] . ورغم تلك الحادثة وأمثالها ، فإن المسلمين أحرزوا انتصارات كثيرة بفضل يقظة السباحين وسرعة وصول أنبائهم إلى صلاح الدين ، وآية ذلك أن الصليبيين حاصروا عكا بالابراج فى ابريل سنة ١١٩٠ (٢٠ ربيع الأول سنة ٥٨٦) واشرف أهلها على الهلاك دون علم صلاح الدين حتى وصله العوام فاخبره بحقيقة الحال ، وسرعان ماركب صلاح الدين العسكر فى قتاله ثمانية أيام ، شغلهم عن مقاتلة العكاويين وانتهى الأمر بحرق الابراج وهزيمة الأعداء . وظل العوامون يؤدون مهمتهم بنجاح باهر حتى خرجوا إلى صلاح الدين فى يوم من أيام شهر يونيو سنة ١١٩١ (الجمعة ١٧ جمادى الآخره سنة ٥٨٧) واخبروه بمصالحة الحامية للصليبيين على التسليم[٢] .

وكيفما كان الأمر فإن صلاح الدين عرف نظام التجسس الحربى بمعناه الحديث ، مستعيناً فيه بالمستأمنين من الصليبيين والأسرى منهم ، الذين أمدوه بأدق التفاصيل عن حالة جيوشهم المعنوية والمادية[٣] . واستخدم صلاح الدين نوعاً آخر من التجسس الحربى ، وهو بث العيون من الفلاحين بين المعسكر الصليبي

(١) العماد ص ١٣٩ ، ١٠٩ .

(٢) أبو شامة جـ ٢ ص ١٨٥ .

(٣) ابن شداد ص ١٦٨ — ١٧٠ .

فى صورة الباعة المتجولين بالفاكهة واللحوم والخبز ، وعند عودتهم يدلون بأخبارهم إلى القاضى بهاء الدين بن شداد الجالس فى خيمة صلاح الدين ،فيكتب يومياً أدق التفاصيل عن نفاذ المؤن ومجىء المدد وما يدور فى المعسكر الصليبي [1] ، ويضاف إلى ذلك كله استخدام المسلمين للنيران فى التراسل والتعارف بين المحاربين على مسافات بعيدة ، واستخدامهم البوق فى الحل والترحال أثناء اختراقهم الامارات الصليبية بين الوديان والتلال [2] .

وبعد ، فإن السلطان صلاح الدين استطاع بمفرده على هذا النحو ،مع بطء المواصلات واتساع رقعة الفتوحات،وتشعب ميادين القتال شرقا وغربا وجنوباً أن يربط أطراف امبراطوريته ، ويهيمن بقوة جيشه المصرى على العالم الإسلامى أجمع، ويحسب الصليبيون له ألف حساب ، بعد أن حصرهم فى شريط ضيق على الساحل الشامى يمتد من طرابلس شمالا إلى الرملة جنوبا .

ولم تكن حياة الجيوش فى العصر الوسيط قاصرة على الحرب والقتال ، بل يلحظ الباحث إشارات مبعثرة هنا وهناك ، تشير إلى معرفة تلك الجيوش للناحيتين الرياضية والاجتماعية ،وإلى اهتمام صلاح الدين بنشر وإذاعة مبادىء وتعاليم الرياضة،البدنية والتربية

(١) Lamb : The Crusades P 113 .

(٢) اسامة ابن منقذ ص٩ ، ١٠ وراجع نظام البريد للمؤلف ص١٤٨ .

الاجتماعية بين أمرائه وعساكره ، إيمانا منه بأنها من أمضى الوسائل فى ترويض الجسم والنفس على الصبر وتحمل الشدائد فى الحروب . لم يغفل صلاح الدين نفسه يوماً عن تمرين جسمه بالرياضة البدنية ، من لعب الكرة والجريد والصيد وركوب الخيل، وارثا ذلك عن والده نجم الدين أيوب أو عن سيده نور الدين محمود . إذ المعروف أن والده ركب فرسه يوماً ليسير على عادة الجند فشب به وهو خارج من باب النصر ، أحد أبواب القاهرة ، فألقاه على الأرض وبقى نجم الدين متألما إلى أن توفى سنة ١١٧٣ م (٥٦٨ هـ) [1]. فنشأ صلاح الدين مولعا بركوب الخيل ومزاولة الألعاب الرياضية ، متفوقا فى لعبة الكرة وغيرها من الألعاب المعروفة وقتذاك ، واشتهر أمره فيها وعلم بذلك نور الدين فقربه منه ولعب معه،فحبه وقربه من قلبه وعهد إليه الاشراف على جنده وقيادة فصائله الرياضية والعسكرية [2]. ولما غدا صلاح الدين سلطانا على مصر والشام أعطى لعبة الكرة وغيرها عنايته ، فخصص لها الملاعب وأوقف لها الأموال ، وشجع أبناءه وأمراءه على مزاولتها ، وشهد ابن جبير خارج دمشق ملعبين فسيحين تكسوهما الخضرة ، أعدهما صلاح الدين ، واعتاد الخروج إليهما

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٥٥ طبعة باريس ١٨٣٨ .

(٢) الذهبي ج ٢٦ ص ١٩٩ — الحروب الصليبية لرفيق التميمى ص ١٤٦ الطبعة الأولى ١٩٤٧ .

ليلعب فيهما بالصوالجة ، ويسابق بين الخيل فيهما . كما يخرج أبناؤه فى كل ليلة إليهما للرماية والمسابقة واللعب[1] . وتحدث ابن منقذ المؤرخ المعاصر لصلاح الدين كثيراً عن هواية الصيد فى عصره وعناية سلاطين وأمراء المسلمين بأماكن الصيد وحيوانه وآلاته وطيوره ، وشغفهم بها ، ويصف ركب والده وهو خارج للصيد بأربعين فارساً من أولاده ومماليكه ، كل منهم خبير بالصيد ، عارف بالقنص ، ومعه من البزاه والشواهين والصقور والفهود والكلاب ما لا يكاد يجتمع عند غيره ، فيتصيد من الغزلان والأرانب والخنازير والحجل ، والدراج وطير الماء ، مالا يحصى عدده . ويذكر ابن منقذ فضل الصيد فى تربية فتيان المسلمين وإعدادهم لمجاهدة الصليبيين[2] . وغدا الصيد فى عصر صلاح الدين رياضة ، فيها كثير من أعمال الحركة والتفكير المستقيم ، لما تتطلبه بعض المواقف من سرعة البديهة وحضور الذهن . وهذه الرياضة ذاتها هى التى مكنت رجلا مثل صلاح الدين أن يكون صبوراً ، فاهما لأخلاق المسكر ، قادراً لقيادتهم فى السلم والحرب .

وحرص صلاح الدين من الناحية الاجتماعية على أن يسود معسكره الفرح والسرور ، فدأب على استقبال أمرائه على باب خيمته بالاحترام

(١) ابن جبير ص ٢٨٨ طبعة ليكون .
(٢) ابن منقذ ص ٧٨ .

والتعظيم ، باسطالهم أفخر الأبسطة والثياب ، مقدماً لهم أطيب التحف واللطائف ، صانعاً لهم أشهى الأطعمة وألذها ، فارحاً بقدومهم فرحا شديدا ، ثم يعرض عليهم ليلا ألوانا مختلفة من الرقص والغناء ، والضرب على الدفوف والطبول والمزامير ، حتى علم خصمه الملك رتشارد بهذا الطرب الجميل ، فرغب فى زيارة عسكر المسلمين ومشاهدة هذا النوع من الفنون ؛ وضرب له الملك العادل أخو صلاح الدين خيمة عظيمة من ثلاث خيام ، وأعد فيها كل ما يراد من فاكهة وحلوى وطعام ، وطلب رتشارد أن يسمعه غناء المسلمين ، فأحضر له العادل مغنية تضرب بالجنك[1] ، فغنت له ، فاستحسن ملك انجلترا ذلك ، وسر سروراً كبيراً[2] .

(١) لفظ فارسى الأصل ، ومعناه آلة موسيقية من آلات الطرب ، ولاعبها جنكى بكسر الجيم — راجع السلوك ج١ قسم٢ ص ٢٧٥ .
(٢) ابن الأثير ج١٢ ص٤٧ — العماد ص٢٨٧ .

مصادر البحث

أولا — المصادر العربية المخطوطة :

١ — ابن الجوزى : أبو الفرج عبد الرحمن سبط (٥٩٧هـ) .
مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ج ٨ .

٢ — ابن دقماق : ابراهيم بن محمد بن أيدمر (٨٠٩ هـ) .
الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين .

٣ — ابن منكلى : الأمير محمد (٧٧٨ هـ) .
الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية .

٤ — ابن واصل : القاضى جمال الدين (٦٩٧ هـ) .
مفرج الكروب فى تواريخ بنى أيوب .

٥ — أبو شامه : شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن (٦٦٥هـ) .
كتاب الذيل على الروضتين .

٦ — بدر الدين : محمد بن أبى بكر بن قاضى شهب الأسدى الدمشقى (٨٧٤ هـ) — الدر الثمين فى سيرة نور الدين .

٧ — بكتوت الرماح : بدرالدين خازندار الملك الظاهر (حوالى ٧١٦) — السؤال والأمنية فى تعليم الفروسية .

٨ — الجزرى : شمس الدين أبو عبد الله محمد (٧٣٩ هـ) .
تاريخ الجزرى .

٩ — الدوادارى : أبو بكر بن عبد الله (حوالى القرن الثامن الهجرى) كنز الدرر وجامع الغرر ج ٧ قسم ١ .

١٠ — الذهبى : الحافظ شمس الدين أبو عبد الله (٧٤٨ هـ) .
تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام .

١١ — رشيد الدين : فضل الله بن أبى الخير الملقب بالرشيد الطبيب (حوالى القرن الثامن)
تاريخ الغازانى المشهور بجامع التواريخ ج ١ ، ٢ .

١٢ — العينى : بدر الدين محمود (٨٥٥ هـ) .
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ح ١ ، ح ٢١ ، قسم ٣

١٣ — النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (٧٣٢هـ)
نهاية الأرب فى فنون الأدب ح ٢٦ و٢٧ .

١٤ — اليوسفى : موسى بن محمد (٧٥٣ هـ) .
كشف الكروب فى معرفة الحروب .

ثانياً — المصادر العربية المطبوعة :

١ — ابن الأثير : عز الدين ابو الحسن على (٦٣٠ هـ) .
(ا) تاريخ الدولة الاتابكية (أتابكة الموصل) ح ٣ من مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية المسلمين .

(ب) الكامل فى التاريخ ح ١٠،١١،١٢ طبعة ليدن .

٢ — ابن إياس : أبو البركات محمد بن أحمد الحنفى المصرى (٩٣٠ هـ) .
كتاب تاريخ مصر المشهور باسم بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ١ طبعة بولاق ١٣١١ هـ .

٣ — ابن جبير : أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسى (٦١٤ هـ) .
رحلة ابن جبير طبعة ليدن ١٨٥٢ م والطبعة الأولى لمطبعة السعادة ١٣٣٦ هـ .

٤ — ابن خلدون : عبد الرحمن بن عمر (٨٠٦ هـ) .
العبر وديوان المبتدأ والخبر ... ج ٥ ومقدمة بن خلدون المطبعة الأزهرية ١٩٣٠ م .

٥ — ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد (٦٨١ هـ)
كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . باريس ١٨٣٨ م وبولاق ١٢٩٩ هـ .

٦ — ابن شداد : القاضى بهاء الدين (٦٣٢ هـ) .
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية — طبعة المؤيد ١٣١٧ .

٧ — ابن العماد الحنبلى : عبد الرحمن بن أحمد (١٠٨٩ هـ)

شذرات الذهب فى أخبار من الذهب ج ٤ طبعة مكتبة القدس ١٣٥٠ هـ .

٨ — ابن القلانسى : أبو يعلى حمزة (؟) .
ذيل تاريخ دمشق طبعة بيروت ١٩٠٨ .

٩ — ابن مماتى : شرف الدين أبو المكارم بن أبى سعيد (٦٠٦ هـ) .
كتاب قوانين الدواوين . نشر الدكتور عطيه سوريال القاهرة ١٩٤٧ .

١٠ — أبو شامة : شهاب الدين أبى محمد عبد الرحمن بن اسماعيل (٦٦٥ هـ) .
كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين . طبعة وادى النيل بمصر ١٢٨٧ هـ .

١١ — أبو الفدا : الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل . (٧٣٢ هـ) .
المختصر فى أخبار البشر ج ٣ . طبعة القسطنطينية ١٢٨٦ هـ .

١٢ — أسامة : مؤيد الدين أبو الظفر بن منقذ الشيرازى (٥٨٤ هـ) .
كتاب الاعتبار . طبعة ليدن ١٨٨٤ ونشر الدكتور حتى ١٩٣٠ م .

١٣ — البغدادى : موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف ٦٢٩ هـ
كتاب الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة فى أرض مصر .
مطبعة المجلة الجديدة بمصر و ج ٣ من مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية المسلمين .

١٤ — التميمى : رفيق .
الحروب الصليبيه — الطبعة الأولى ١٩٤٧ .

١٥ — زيدان : جورجى .
تاريخ التمدن الإسلامى . مطبعة الهلال ١٩٠٢م .

١٦ — سرهنك : إسماعيل .
حقائق الأخبار عن دول البحار ج٣ قسم١ الطبعة الأولى ١٩٢٣م .

١٧ — سعداوى : نظير حسان :
نظام البريد فى الدولة الإسلامية . دار مصر للطباعة سنة ١٩٥٣ .

١٨ — السيوطى : الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (٩١١ هـ) .
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة . المطبعة الشرقية بالقاهرة ١٣٢٧ هـ .

١٩ — عماد الأصفهانى : أبو عبد الله محمد بن صفى الدين ٥٩٧ هـ
كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى . مطبعة الموسوعات ١٣٩١ هـ .

٢٠ — عمارة اليمن : أبو محمد بن أبى الحسن نجم الدين (٥٦٩هـ) .
(ا) كتاب النكت المصرية فى أخبار الوزراء المصرية طبعة شالون ١٩٣٧م .
(ب) كتاب تاريخ اليمن — طبعة لندن ١٣٠٩هـ

٢١ — العمرى : شهاب الدين أحمد بن فضل الله (٧٤٢هـ) .
التعريف بالمصطلح الشريف . مطبعة العاصمة بمصر ١٣١٢هـ .

٢٢ — القلقشندى : أبو العباس أحمد (٨٢١هـ) .
(ا) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار . النيل بمصر ١٣٣٤هـ .
(ب) السلوك لمعرفة دول الملوك . نشر الدكتور زيادة . دار الكتب المصرية ١٩٣٤م .

٢٣ — النورى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٧٣٢هـ) .
نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٦ ، ٨ دار الكتب المصرية ١٩٢٨م .

٢٤ — ياقوت الحموى : أبو عبدالله الملقب بشهاب الدين (٦٢٦هـ) .

(ا) معجم الأدباء جـ ٣ . تصحيح مرجليوث . المطبعة الهندية بالموسكى بمصر .

(ب) معجم البلدان جا ١ طبعة أوربا .

٢٥ — لم يعرف مؤلفه :

كتاب فهرسة الكتب التى نرغب أن نبتاعها، والمسائل التى توضح جنس الكتب التى نرغب الحصول عليها، إنما نجهل أسمائها . طبعة لندن ١٨٤٠م . توجد منه نسخة واحدة بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم Bi 770 .

ثالثا — المصادر الأجنبية :

1 - **Ayalon: D.**
Studies on the Structure of the mamluk army P. 223 in B. O. S.

2 - **Brehier : L.**
L' Eglise et L' orient au moyen age. Paris 1928.

3 - **Campbell : g. A.**
The Crusades

4 - **Fortescue : H. g. w**
Histry of tbe British army. V. 1 London 1910.

5 - **gibb : H. A R.**
The Damascus chronicle of the crusades. London 1932.

6 - **Lamb : H.**
The crusades (the flame of islam) London 1931.

7 - **Lane-poole: S**
A History of egypt in the middle ages. London 1901.
Saladin& the fall of kingdom of jerusalem 1898.

8 - **Mawlawi Fadil : S**
The decline of the Saljuqid empire. calcutta. 1938.

9 - **Michaud : Histoire de croisades V. ll et iv nouvelle edition paris**

10 - **Reinaud : g. T.**
Extraits des Historiens arabes relatifs aux juerres des croisades.
– L'art militaire chez les arabes au moyen agcs journal asiatique. Septembre 1848, V. 13.

11 - **Sabahudden : S**
Conduct of Strategy & Tactics of war during the muslim Rule in India fIslamic culiure. V. xx n.2 .
April 1946 no 3, 4 V xxl no 1

12 - **Stevenson : W. B.**
The erusades in the east. Cambridge 1907.

فهرس الأعلام

(ا)

فهرس المدن

للمؤلف :

١ — نظام البريد فى الدولة الإسلامية

يطلب من مكتبة مصر بالفجالة . طبعة ١٩٥٣

٢ — التاريخ الحربى المصرى على عهد صلاح الدين

[تحت الطبع]

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١	٤	١١٧٨ م .	١١٨٧ م .
٢٦	١٤	بفا	بغا
٢٧	٨	صب	عصب
٥٩	٧	الشك	الشدة
٧٠	١٦	الحرب	الخرب
٧٢	١٣	يشببهما	يشبهما
٨٩	١١	(٢)	(١)
٨٩	١٣	(٣)	(٢)
١٠٤	١٨	ليكون	ليدن

مطبعة لجنة البيان العربي